التي تعد اليوم انكليزية بحتة . ولم تجد اللغة الانكليزية في تلك الاستعارة ضيرا ولا منقصة . بل ان ابناء تلك اللغة عدوا الاستعارة دليلا على مرونة لغتهم وقابليتها على ان « تطعم » بما تكنه اللغات الاخرى .

فما احرانا نحن ابناء العربية ان نسلك اليوم هذا السبيل فنستعير ما لا وجود له في لغتنا ، ونلبسه صيغة عربية مقبولة فنكتسب بذلك الوفا من الالفاظ الاصطلاحية المعربة .

ولسنا نقول ان « التعريب » هو العماد الوحيد الذي يركن اليه في هذا الباب . كلا ، فان في كتب التراث العربي من الالفاظ القديمة ما يجب العود اليه، ونفض غبار النسيان عنه ، واحياؤه بالاستعمال . اننا نعثر في كتب التراث القديم ، على الفاظ اصطلاحية غاية في الكثرة ، وقد تناثرت في معجمات اللغة وفي كتب العلوم المختلفة . والا فكيف تسنى لائمة العلماء القدامى كالفرابي وابن سينا وابن الهيثم والبيروني والزهراوي والخوارزمي ومن جرى مجراهم في ميادين العلم ، نعم كيف تسنى لهم ان يضعوا تلك التصانيف النفيسة في بابها ويعبروا فيها عن الحقائق العلمية بعبارة سليمة قويمة ؟

وفي هذا ما يبعد الشبهة عن ضعف اللغة العربية مع تسليمنا بفارق الزمن وبواقع الحال التي تتجلى اليوم في اتساع العلوم العصرية وترامي اطرافها . فلقد اخذ العلم الحديث يسير بخطى سريعة جدا لا تجارى الا بالجهد المتصل والداب المنسق .

لن يفوتنا التنويه بمزية تتحلى بها العربية ، وهي « الاشتقاق » فبينما نجد اللغات الغربية تعتمد كثيرا على « النحت » نجد العربية « لغة اشتقاقية » يتاح للباحث ان يستعين بهذه المزية العظيمة ويخرج منها بفوائد جمة تعود على لغة العلم باوفى الثمار .

وبعد هذا التحليل القيم عن دور اللغة في التعبير في عصر التكنولوجيا وشرح الاسباب الحقيقية التي تجعل كثيرا من الاختصاصيين في الميدان العلمي كالاطباء والمهندسين قاصرين عن الكتابة في ميادين اختصاصهم بلغة سليمة نجد سؤالا هاما آخر فرض نفسه في الموضوع ذاته وهو كيف استطاع الدكتور يعقوب صروف والاستاذ احمد زكي ان ينشرا عدة كتب ومقالات في موضوعات علمية عويصة في الفلك والرياضيات والجيولوجيا والنبات والكيمياء والفيزياء بلغة سليمة يستسيغها الذوق وترتضيها قواعد اللغة.

ان الجواب على ذلك يكمن في الحقائق التالية : ان الطبيب والمهندس والعالم المختص بأحد العلوم العصرية لا شك في انه قد اجتاز في اثناء دراسة مراحل دراسية : ابتدائية متوسطة ، اعدادية . لندع دراسته العالية ونقتصر على المراحل المذكورة الم يدرس في سنن هذه المراحل اللغة العربية صرفا ونحوا وانشاء؟ فاين ذهبت تلك الدراسة ؟ وهي لو احتفظ بها ، تفي في ما ارى بالغاية اللغوية التي يبتغيها العالم المختص . فلماذا نراه ، بعد ذلك يكتب باسلوب يعتوره ضعف ؟ ولماذا يخطىء في قواعد الصرف والنحو ، وهي امور سبقت له دراستها ؟

لعل من يقول ان هذا العالم المختص بعد ان تعمق في فرعه لم يعد يتسنى له الاستمرار على العناية بلغته فتركها وشانها انصرافا منه لفرعه . وقد يكون هذا صحيحا . اما ان نرجع ذلك النقص الى اللغة نفسها ونرميها بما ليست فيه ، فامر فيه كثير من التجني عليها .

وبديهي ان ذوي التخصص هم عادة اناس على قسط كبير من الذكاء والاطلاع ولعله من العبث ان يذكرهم المرء بان اداة التعبير نفسه ان يكون موفقا ومن العبث كذلك ان يذكرهم المرء بان العناية بالناحية الادبية من الفكر الانساني لا يجوز اهمالها مهما اهتم المتخصص بالقضية العلمية نفسها . وربما كان هذا بعض السبب في ان الكثير من الجامعات تصر على ان يدرس طلاب العلوم التكنولوجيا على الاقل موضوعا ادبيا واحدا كل سنة عليهم ان ينجحوا فيه بدرجة عالية . فضلا عن الناحية الانسانية التي بهذا يبقى العالم على صلة بها فانه يتمكن من تلك القوة التعبيرية ـ القوة اللفظية والاسلوبية ـ التي تجعله قادرا على صياغة افكاره العلمية في اشكال مستساغة . والذي اعرفه هو ان البعض من اقدر العلماء هو ايضا من اشد الناس فصاحة وقوة في التعبير ـ مما يجعلنا نتقول ان من كان ضئيل الحظ من الفصاحة وقوة التعبير وربما كان ايضا قليل الحظ من القدرة العلمية الحقيقية ـ ولو انه لا بد من رفض التعميم في مثل هذا المجال .

اما محنة التاليف والترجمة في العلوم عندنا فهي ذات شقين (او اكثر) ! : اولا ، محنة المؤلف النادر الذي يعشق ما يكتب او يترجم فيه بحيث يكون مستعدا للتضحية بوقته وجهده من اجل الكتابة والترجمة مهما تكن نتائج النشر . ثانيا ، محنة القارىء العربي الذي ما زال بعيدا عن الاقبال على الكتب

العلمية رغم دخول العصر التكنولوجي. كيف نعالج هاتين المحنتين ؟ لا بد من العودة بذلك الى الجامعة وما تيسره من فرص للتاليف وما تخلقه من حب حقيقي للعلم في نفوس الطلاب . القضية تربوية ، وحضارية معا . وتحتاج الى دراسة كثيرة الشعب لا تجدي معها اشارة سريعة في عجالة كهذه .

ولا ننكر ان الصعوبة التي يحسها المختصون في العلوم هي صعوبة حقيقية لا ينفعنا مطلقا محاولة التقليل من شانها . وقد اتضحت لي انا شخصيا ـ يقول الاستاذ جرجيس فتح الله ـ هذه الصعوبة عندما قمت بنقل كتاب ـ تراث الاسلام ـ المعروف الى العربية قبل ستة عشر عاما ، وبعدها اخذت اكتب واترجم الى العربية بعض الكتب والبحوث الخاصة بنظرية الموسيقى العربية وتراثها . فقد ادركت من الوهلة الاولى سبب وقوف ـ لجنة النشر للجامعيين ـ المصرية التي تالفت في العام 1935 لنقل الكتاب الاول الى العربية فاخفقت في منتصف الطريق ، اي عندما اصطدمت بابواب الطب والرياضيات والهندسة والقانون والتصوف الخ ...

وزيادة في الايضاح يجدر بنا ان نشير الى ان هناك اسبابا كثيرة تجعل من حملة الشهادات العالية المتخصصين في العلوم كالاطباء والمهندسين والتكنولوجيين في وضع لا يستطيعون فيه الكتابة في اختصاصاتهم بلغة سليمة بل حتى ان البعض منهم لا يستطيع التعبير عن افكاره العلمية في قالب كتابي مستساغ .

واول هذه الاسباب هو ضعف تعليم اللغة العربية في الدراسة الابتدائية والثانوية وهي المرحلة التي يتعلم فيها الطالب قواعد اللغة واسسها وحسب علمي ان وزارة التربية تتعاون في الوقت الحاضر مع مركز البحوث التربوية التابع لجامعة بغداد لوضع كتب جديدة لتعليم اللغة العربية في المدارس الابتدائية والثانوية .

والسبب الآخر هو ان تعليم هؤلاء في المرحلة الجامعية على الاغلب يكون بلغة اجنبية في العراق اذ لا زلنا نعتمد على المراجع العلمية الاجنبية ولعدم توفر هذه باللغة العربية اخذنا بطريقة التدريس بلغة اجنبية.

والسبب الثالث هو ان لغة البيت ولغة الشارع تختلف كثيرا من اللغة الفصحى ولو جرت محاولة لتقريب اللغة العامية من اللغة الفصحى وعدم استعمال الكلمات العربية ونشر الفصحى عن طريق الاذاعة والتلفزة فبعد مرور وقت طال وقصر سنجد ان اللغة العامية تقترب من الفصحى .

وهناك سبب رابع وهو عدم تشجيع التاليف باللغة العربية في المجالات العلمية ويجب ان يكون هذا من الشروط المطلوبة في الترقيات العلمية التي تتطلبها الجامعات من اعضاء الهيئة التدريسية .

العوامل الطارئة على اللغة
دراسة لقضايا اللحن والتصحيف والتوليد والتعريب ... في ضوء علم اللغة الحديث

الدكتور محمد عيد
كلية دار العلوم
جامعة القاهرة

لكتابة هذا البحث حول معنى اللحن فى الكلام العربي وتطور استعماله ومقاومته ينبغي ـ كما هو واضح فى عنوانها ـ تناول الامور الآتية :

1 ـ معرفة المقصود باللحن وبيان مظاهره مع تقديم نماذج لها .

2 ـ بيان تطور استعماله فى الكلام العربي باختصار .

3 ـ حركة المقاومة العلمية التي تمثلت فى جهود العلماء لتنقية اللحن .

لقد بحث كثير من الدارسين فى كلمة « اللحن » وتعدد معانيها ، وتطور هذه المعاني ، ويذكر فى هذا الصدد ان من معانيها « الفطنة والذكاء » استنادا الى قول الرسول (لعل احدكم أن يكون الحن بحجته من بعض) او التظرف فى الحديث بخلطه بالكلام الاجنبي او الكلام المتعمد فيه الخطأ كما روى ابن دريد انه «قيل لمعاوية : ان عبد الله بن زياد يلحن فى كلامه ، فقال : اوليس بظريف ابن اخي يتكلم بالفارسية ، فظن معاوية ان الكلام بالفارسية لحن » ومن ذلك البيت المشهور للفزاري

منطق صائب وتلحن احيانا
وخير الحديث ما كان لحنا

ومن معانيها ايضا « التورية » باستخدام معنى قريب وارادة معنى بعيد ، وعلى ذلك الف ابن دريد كتابه « الملاحن » قاصدا به استخدام الكلمات وارادة معان اخرى لا تخطر لاول وهلة على الذهن عند سماع الكلمة ، وفى مجال المعنى ايضا اطلقت على الخطأ فى المعاني ، وذلك باستعمال الكلمة او التركيب كله على غير وجهه الذى قرره له العلماء ، وقد الف المفضل ابن سلمه كتابه « الفاخر فيما تلحن فيه العامة » من هذا النوع من الخطأ فى المعاني ، وجاء فى مقدمته قوله : « هذا كتاب معاني ما يجري على السن العامة فى امثالهم ومحاوراتهم من كلام العرب ، وهم لايدرون

معنى ما يتكلمون به من ذلك ، فبيناه من وجوهه على اختلاف العلماء في تفسيره » .

فهذه المعاني وغيرها تندرج تحت كلمة « لحن » وربما استعملت في عصور متفاوتة خاضعة في ذلك لتطور الدلالة كما هو شان الكلمات في كل اللغات او استعملت بمعان متعددة في عصر واحد بعد ان تجمعت حول الكلمة ، والذي يعين احد هذه المعاني ظروف الدلالة للنص الذي وردت فيه .

ولا علينا من ذلك كله ، فان اللحن الذي تقصده هنا هو « خروج الكلام الفصيح عن مجرى الصحة في بنية الكلام او تركيبه او اعرابه بفعل الاستعمال الذي يشيع اولا بين العامة من الناس ، ويتسرب بعد ذلك الى لغة الخاصة » واللحن بهذه الصفات امر طارىء على اللغة الفصحى ، اذ ان المفترض في نطق العرب لها اولا هو الصحة والسلامة اعتمادا على الفطرة والسليقة ، فهذا هو الاصل ، فما حاد عن هذا الاصل الفطري المتوارث فهو خطا ، ويوصف نطقه حينئذ بانه « لحن » وغالبا ما يضاف « اللحن » الى « العوام » او « العامة » تنبيها على الاصل الذي جاء منه الخطا في الاستعمال.

— قال ابن دريد : فاما اللحن في العربية ، لانك اذا قلت (ضرب عبد الله زيد) لم يدر ايهما الضارب ولا المضروب ، فكانك قد عدلته عن وجهه ، فاذا اعربت عن معناك فهم (1) عنك .

— سمع ابو عمرو بن العلاء ان ابا حنيفة يبطل القود الا ما كان قتلا بحديد ، فقال له ابو عمرو: ارايت ان ضربه بكذا ، ارايت ان ضربه بكذا ، قال لو ضربه بأبو قبيس لم يكن عليه قود ، فقال ابو عمرو: هذا كلام شنع ، قال : وما الشنع ؟! قال : ولا تعرف الشنع ايضا !! (2)

— روى الزجاجي : كان سيبويه مستمليا لحماد بن سلمة — وكان حماد فصيحا — فاستملاه يوما قول رسول الله (ص) : ليس من اصحابي احد الا ولو شئت اخذت عليه ليس ابا الدرداء ، فقال سيبويه (ليس ابو الدرداء) فصاح به حماد : لحنت يا سيبويه ، ليس هذا حيث ذهبت وانما هو استثناء ، فقال سيبويه : لا جرم والله لاطلبن علما لا تلحنني معه ، فمضى ، ولزم مجلس الاخفش مع يعقوب الحضرمي والخليل وسائر النحويين (3) .

— قال ابن الجوزي : واعلم ان غلط العامة يتنوع ، فتارة يضمون المكسور ، وتارة يكسرون المضموم وتارة يمدون المقصور ، وتارة يقصرون الممدود ، وتارة يشددون المخفف ، وتارة يخففون المشدد وتارة يزيدون في الكلمة ، وتارة ينقصون منها ، وتارة يضعونها في غير موضعها ، الى غير ذلك من الاقسام (4) .

ويستنبط من النماذج السابقة الدلالة على السمات التي يوصف الكلام من اجلها « باللحن والخطا » فابن دريد يرى الاخلال بالاعراب في مثل (ضرب عبد الله زيد) لحنا في العربية ، وهذا حق ويفسره بالعدول عن الوجه فيه من نصب (زيد) في العبارة السابقة ، وهذا حق ايضا لكنه يتوسع في فهم العدول عن الوجه في الكلام بما يشمل الدلالة ايضا « لم يدر ايهما الضارب ولا المضروب فاذا اعربته فهم عنك » وهذه وجهة لفهم اللحن في المعنى، ويصادفها المرء كثيرا في الكتب التي تناولته بالدراسة، وان لم تصل الى الفهم الشائع عنه من الخطا في الاعراب .

وابو عمرو بن العلاء يصف نطق ابي حنيفة (ضربه بأبو قبيس) بانه « كلام شنع » مستخدما صيغة المبالغة في وصف الخطا الاعرابي في الكلام الذي هو «اللحن» وهو ما ذكره صراحة حماد ابن سلمة لسيبويه حين اخطا في مثل ما اخطا فيه ابو حنيفة من قوله (ليس ابو الدرداء) ، اذ صاح به حماد (لحنت يا سيبويه) فمن ذلك يتضح ان اللحن يطلق على الخطا في الاعراب اذا حدث في اللغة الفصحى ، فاستعمل فيها تاثرا بما شاع بين العوام وفي الكلام الدارج ، كما انه يشمل ايضا ما عده ابن الجوزي من ضم المكسور وكسر المضموم الخ.. وهذا في معظمه يتعلق ببنية الكلمات، وقد سماه « غلط العامة » ايضا .

---

(1) الملاحن ص 6 .
(2) مجالس العلماء ص 110 .
(3) السابق ص 154 .
(4) تقويم اللسان ورقة /2 .

ومما ذكره ابن الجوزي قوله « وتارة يضعون الكلمات في غير مواضعها » وافهم من ذلك ما يشمل تاليف الكلام العربي ورصف الكلمات في التراكيب اللغوية ، وما يشمل معاني الكلمات في استخدامها على غير ما قرره لها علماء اللغة ، وهذا الاخير جانب اطلق العلماء عليه ايضا انه « لحن وخطا » وان لم يكن من الكثرة والشهرة ما للاخلال بالاعراب او بنية الكلمات .

فقد اندرج تحت ما اطلق عليه « اللحن » أمور ثلاث ، اقلها شهرة واهتماما الخطأ في المعنى باستعمال اللفظ او التركيب في غير ما هو له من المعنى ، واعظمها شهرة وكثرة واهتماما من علمائنا الخطا في بنية الالفاظ او الاعراب ، وساقدم هنا امثلة قليلة لهذه المظاهر الثلاثة ، الهدف منها تقديم النماذج لا الاستقصاء ، فان مؤلفات اللحن وحدها — فيما استقرائه — بلغت اكثر من اربعين مؤلفا ، تحوي مادة لغوية ضخمة لهذه المظاهر الثلاثة ، وسياتي عرض ذلك فيما بعد .

اولا : من نماذج الخطا في المعاني :

1 — مما تضعه العامة في غير موضعه قولهم (خرجنا نتنزه) اذا خرجوا الى البساتين وانما (التنزه) التباعد عن المياه والارياف ، ومنه قيل : فلان يتنزه عن الاقذار ، اي يتباعد منها ومنه قول الهذلي :

اقب طريد بنزه الفلاة لا يرد الماء الا انتيابا (1)

2 — ومن ذلك (الطرب) يذهب الناس الى انه في الفرح دون الجزع ، وليس كذلك انما الطرب خفة تصيب الرجل لشدة السرور او لشدة الجزع ، قال الشاعر وهو النابغة الجعدي :

واراني طربا في اثرهم
طرب الواله او كالمختبل (2)

3 — ومن ذلك (الحشمة) يضعها الناس موضع الاستحياء ، قال الاصمعي ، وليس كذلك انما هي بمعنى الغضب ، وحكى عن بعض فصحاء العرب انه قال : ان ذلك لما يحشم بني فلان ، اي يغضبهم (3) .

4 — ويقولون (بكرت اليك) بمعنى غدوت خاصة ، وقال ابو بكر (ابن دريد) البكور التعجل في جميع اوقات الليل والنهار ، يقال : انا ابكر اليك العشية ، وانشد ابو زيد لضمرة بن ضمرة :

بكرت تلومك بعد وهن في الندى
بسل عليك ملامتي وعقابي

يقال : بعد وهن ، يعني حينا من الليل (4)

5 — قولهم للثوب (وشاح) قال محمد (الزبيدي) والوشاح نظمان من لؤلؤ يخالف بينهما ، ويعطف احدهما على الآخر ، وتتوشح به المراة على كشحها (5) .

6 — ويقولون (ذو نفع وضر) فيضمون ، قال محمد (الزبيدي) والصواب (ضر) بالفتح ، واما (للضر) فهو السقم ، قال الله عز وجل : « وان يمسك الله بضر فلا كاشف له الا هو) (6) .

7 — ومن ذلك (الاستحمام)يكون عندهم بالماء الحاروالبارد ، وليس كذلك ، انما الاستحمام بالماء الحار خاصة (7) .

8 — قول المتكلمين (هذه المحسوسات) خطا ، والصواب (المحسات) لانه يقال : احسست الشيء بمعنى ادركته ، فاما المحسوس فهو المقتول ، ممن حسه اذا قتله (8) .

9 — وتقول (استخفيت من فلان) والعامة تقول (اختفيت منه) وانما الاختفاء الاستخراج ومنه قيل للنباش (مختف) (9) .

10 — وتقول (اصبح القوم) اذا صاحوا وجلبوا، والعامة تقول (ضجوا) وانما يقال (ضجوا) اذا جزعوا (10) .

---

(1) اصلاح المنطق ص 287 .
(2 — 3) ادب الكاتب ص 18 — 19 .
(4 — 5 — 6) انظر لحن العوام ص 137 — 206 — 244 .
(7) لحن العوام ص 256 .
(8) ذيل الفصيح ص 102 .
(9 — 10) رسالة في اغلاط العوام ورقة 101 .

ويكفي هذه الامثلة العشرة لهذا النوع من الخطأ في المعنى ، او ما وصف بانه « لحن العوام » والملاحظ على هذه الامثلة ـ وشبهها كثير ـ ان الحكم عليها باللحن كان من زاوية الاستعمال في فترة خاصة ، فالتزم هذا الاستعمال وتوقف ، ولم يؤخذ في الاعتبار بالنسبة لها تطور الدلالة التي قد تتغير من جيل لجيل ، فالكلمات ليست احجارا جامدة ، ولكنها وسيلة اجتماعية يطرأ عليها التغيير في معانيها ، والتطور في دلالاتها بحسب العرف اللغوي الذي يستخدمها ، ومن المفيد ان نلاحظ ايضا ان معاني هذه الكلمات العشر التي حكم عليها بالخطأ ظلت منذ القديم سائدة حتى الوقت الحاضر ـ وانه لا يخطر ببال احد استعمالها بالعرف الذي راى العلماء انه هو العرف الصحيح ، فمن ذا الذي يفهم من (خرجنا نتنزه) التباعد عن المياه والارياف ، ومن (الطرب) الحزن والسرور معا ، ومن (الحشمة) معنى الغضب لا الاستحياء ، ومن (البكور) التعجل عامة ، ومن (الوشاح) نظمان من لؤلؤ لا الثوب ؟! ومن الذي يستخدم (الضر) بالفتح في مقابل النفع، ويترك (الضر) بالضم ويفهم من (الاستحمام) انه للماء الحار خاصة ، ومن (الاختفاء) الاستخراج لا التواري عن العيون !! فمن الواضح ان تفكير علماء اللغة على هذا النحو تفكير التزم التقعيد والتحديد ولم يأخذ في اعتباره المرونة والتطور ، فبقيت دراستهم في واد والاستعمال في واد آخر ، ولست مغاليا ان قلت : ان هذه الجهود كلها افادت من حيث الدراسة في ذاتها ، لكنها لم تتفق مع طبيعة اللغة ، ولذلك لم تفد كثيرا في تعديل ما أطلق عليه (اللحن) في عصرهم او بعد عصرهم .

ثانيا : من نماذج الخطأ في بنية الكلمات :

1 ـ قولهم (دخل في غمار الناس) هذا مما يخلط فيه العامة ، والعرب تقول (دخل في خمار الناس) اي فيما يواريه ويستره منهم حتى لا يبين (1)

2 ـ ويقولون (مقداف السفينة) قال محمد (الزبيدي) والصواب (المجداف) ومنه جدف الطائر بجناحيه يجدف جدوفا ، اذا كان مقصوصا ، فرايته كانه يرد جناحيه الى خلفه ويدارك الضرب (2) .

وواضح ان الخطأ في هذين المثالين سببه التطور الصوتي ، لقرب المخرج بين كل من الخاء والغين في (خمار وغمار) وكذلك بين كل من الجيم والقاف في (مجداف ومقداف) وربما نطقت الجيم اولا (ج) ثم تطورت الى القاف .

3 ـ قال الجاحظ : كان عند عمر بن عبد العزيز رجلان ، فجعلا يلحنان ، فقال الحاجب (قوما فقد اوذيتما امير المؤمنين) قال عمر : انت آذى لي منهما (3) .

4 ـ قال ابو عمرو : يقال : أزللت له زلة ولا يقال (زلنت) وقد اغلقت الباب فهو مغلق ، ولا يقال (مغلوق) وقد اقفلته فهو مقفل ولا يقال (مقفول) (4).

5 ـ ويقولون (هبت الارياح) مقايسة على قولهم (رياح) وهو خطأ بين ، والصواب ان يقال (هبت الارواح) كما قال ذو الرمة :

اذا هبت الارواح من نحو جانب
به اهل مي هاج قلبي هبوبها

والعلة في ذلك ان اصل (ريح) (روح) لاشتقاقها من (الروح) وانما ابدلت الواو ياء في (ريح ورياح) للكسرة التي قبلها ، فاذا جمعت على (ارواح) فقد سكن ما قبل الواو ، وزالت العلة (5) .

6 ـ ويقولون للمطهرة (ميضة) وبعضهم يقول (ميضاه) والصواب (ميضاة) بالهمزة ، والجمع (مواضيء) (6) .

---

(1) الفاخر فيما تلحن فيه العامة ص 246 .
(2) لحن العوام ص 69 .
(3) البيان والتبيين جـ 3 ص 24 .
(4) اصلاح المنطق ص 227 .
(5 ـ 6) لحن العوام ص 169 ـ 174 .

7 ـ ويقولون (يوم مهول) ، والصواب (يوم هائل) و (امر هائل) يقال : هالني الشيء يهولني هولا ، فهو هائل (1) .

8 ـ يقولون(استهتر الرجل فهو مستهتر)(بالكسر) والصواب(استهتر فهو مستهتر)(بالفتح)وهوالذي يخلط في اقواله وافعاله ، حتى كانه بلا عقل (2) .

9 ـ وتقول : هذه مروحة ومخدة ومقنعة ومنحفة وملة ومذبة ومغرفة ومقطرة ومطرقة ومدقة ومقرعة ومنطقة ومبرد ومطرد ومبضع ومنديل والمساح ـ موضع بطريق مكة ـ والمرنج ـ النجم ـ كله بكسر الميم والعامة تفتحها (3) .

10 ـ ويقولون في جمع بيضاء وصفراء وسوداء ، بيضاوات وصفراوات وسوداوات ، وهو لحن فاحش ، لان العرب لم تجمع فعلاء التي هي مؤنث افعل بالالف والتاء ، بل جمعته على (فعل) نحو بيض وصفر وسود ، كما جاء في القرآن (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود) وفي قول امريء القيس :

وتحسب سلمى لا تزال ترى طلا
من الوحش او بيضا بميثاء محلال (4)

فالنماذج العشر السابقة ـ ومثلها كثير ـ تتعلق ببنية الكلمة العربية ، وتدخل تحت مباحث علم الصرف ، وترتب على ذلك ان الحكم عليها « باللحن والخطا » جاء في ضوء القواعد الصرفية فبعضها يتعلق باخلال بنطق حروف الكلمة بوضع حرف مكان آخر في (غمار وخمار) و (مقداف ومجداف) أو باجراء الاعلال وتركه على غير مقتضى قوانين الاعلال والابدال كما في (ازللت وزللت) او صياغة المشتقات على غير الطريقة المحددة لها في شكل الحروف وكميتها مثل (مغلق ومغلوق ـ مقفل ومقفول مهول وهائل ـ مروحة ومروحة .. الخ) . او في الهمز والتسهيل كما في (ميضاه وميضاة) او بناء الفعل للمعلوم والمجهول حسبما ورد عن العرب وقررته كتب الصرف كما في (استهتر واستهتر واستضحك واستضحك) او في صيغة الجمع للمفرد كما في (بيضاوات وبيض) . فكل هذه المباحث قرر لها علماء النحو والتصريف مباديء محددة ، وفي ضوء هذه المباديء غالبا نظروا الى طريقة استعمال اللغة على مدى العصور ، فكل ما وجدوه مخالفا لها ، حكموا عليه « باللحن » ونسبوه الى العوام .

ومن المفيد ان يعرف ان هذا النوع من الخطا قد حظي بعناية العلماء عناية فائقة في « كتب لحن العامة» مما لم ينل مثله المظهران الآخران من مظاهر اللحن اللذان يتعلقان بالمعاني او التراكيب والاعراب، ولعل ذلك يرجع الى الاعتقاد بان هذا المظهر من اللحن اشد خطورة على اللغة من المظهرين الآخرين لما يترتب عليه من « تشويه اللغة » وطمس المعاني واضطرابها ، بالاضافة الى ما اطمانوا اليه من ضخامة الجهود النحوية التي تقي من « اللحن » في الاعراب بالنسبة للجهود في بنية الكلمات ووضع القوانين لها .

ثالثا : من نماذج الخطا في التركيب والاعراب :

1 ـ تقول (شكرت لك ونصحت لك) ولا يقال (شكرتك ونصحتك) وقد نصح لفلان وشكر له ، هذا كلام العرب ، قال الله تعالى (واشكروا لي ولا تكفرون) (ولا ينفعكم نصحي ان اردت ان انصح لكم (5) .

2 ـ قال الاخفش : اخبرني المبرد قال : انشدني سليمان بن عبد الله بن طاهر لنفسه :

وقد مضت لي عشرونان ثنتان

فقلت له : ايها الامير ، هذا لحن ، لان اعرابا لا يدخل على اعراب (6) .

3 ـ من اللحن قولهم (العوام) فيه تبارك وتعالى (هذه صفة ذاته ، وهو مباين بالذات) قال محمد (الزبيدي) ولا يجوز ان يلحق الالف واللام (ذو ولا ذات) في حال افراد ولا تثنية ولا جمع ، ولا تضاف الى المضمرات ، وانما تقع ابدا مضافة الى

(1،2) لحن لعوام ص 253 ـ 255 .
(3) تقويم اللسان ورقة 25 .
(4) تصحيح التصحيف وتحرير التحريف ورقة ـ 104 .
(5) ما تلحن فيه العوام ص 25 .
(6) الوشح ص 357 .

الظاهر ، ــ الا ترى انك لا تقول (اللو ولا الذوان ولا الذون ولا الذات ولا الذوات ولا ذوك ولا ذوه ولا ذوهما ولا ذوهن ولا ذواتها ، ولا تقول : مررت بذاتــه ولا بذاتك) وقد غلط في ذلك اهل الكلام واكثر المحدثين من الشعراء والكتاب والفقهاء (1) .

4 ــ قال أبو زيد الانصاري : لقيت ابا حنيفة ، فحدثني بحديث فيه (يدخل الجنة قوم حفاة عــراة منتنين قد احمشتهم النار) فقلــت له : انما هــو (منتنون قد محشتهم النار) فقال : ممّن انت؟؟ فقلت: من أهل البصرة ، فقال : اكل اصحابك مثلك ؟؟ قلت: بل انا اخسهم حظا في العلم ، فقال : طوبى لقوم يكون مثلك اخسهم حظا (2) .

5 ــ ويقولون (ادخل باللص السجن) والصواب ان يقولوا (ادخل اللص السجــن) لان الفعل تــارة يعدى بهمزة النقل كقولك (خرج واخرجته) وتــارة بالباء ، كقولك (خرج وخرجت به) فاما الجمع بينهما فممتنع (3) .

6 ــ العامة تقول (فعل الغير ذاك) فيدخلــون على (غير) اداة التعريف ، والمحققون من النحويين يمنعون من ادخال الالف واللام عليــه ، لان المقصــود بدخول آلة التعريف على النكرة ان تخصصــه لعينه ، فاذا قيل (الغير) اشتملت هذه اللفظة على ما لا يحصى كثرة (4) .

7 ــ والعامــة تقول (لا افعل هــذا قط) في المستقبل (ولا افعله ابدا) وهو غلط ، والصواب ان تقوله في الماضي (ما فعلت هذا قط) اي فيما انقطع من عمري (5) .

8 ــ (غيــر) اسم ملازم للاضافة في المعنى ، ويجوز ان يقطع عنها لفظا ، ان فهم المعنــى وتقدمت عليها كلمة (ليــس) ، وقولهم (لا غير) لحن ، ويقال (قبضت عشرة ليس غيرها (6) .

9 ــ (عند) لا تقع الا ظرفا او مجرورة بمن ، وقول العامة (ذهبت الى عنده) لحن (7) .

10 ــ وتقول (ما رايته من امس ومن ايام) وهو غلط ، لان (من) تخــص المكان ومذ ومنذ يختصــان الزمان (8) .

ويلاحظ على الامثلة العشرة السابقة ان الكثير منها يتعلق بتاليف التركيب العربي ، والامــر الذى استقر عليه هذا التاليف بين النحاة ، وما جاء مخالفا للطرائق المنظمة لذلك ، ينبغي ان يدخل دائرة «اللحن والخطا» كما هو واضح تماما في (ادخــل باللــص السجن) و (شكرت لك ونصحت لك) و (لا افعــل هذا قط) والصحيح فيه (ما فعلت هذا قط) وكذلك (لا غير) والقواعد تقضي بأن التعبير الصحيح هــو (ليس غير) ــ كما ان بعض الاخطاء تعود ــ في نظر النحاة ــ الى استخدام الادوات بطريقة غير ما استقر عليه الامر ــ وبخاصة حروف الجر ــ كما في (ذهبت الى عنده) وصحتها (جئت عنده) و (جئت من عنده) وكذلك (ما رايته من امس) وتقضي القواعد استخدام (منذ) في هذا الموضع ــ كما يعود اللحن هنا كذلك الى الشكل الاعرابي ، وخروج الكلام عن مقتضاه ، كما في (عشرونان) اذ قال المبرد منبها على الخطأ فيها « ايها الامير ، هذا لحن ، لان اعرابا لا يدخل على اعراب » وكذلك قول ابي حنيفة (يدخل الجنة قوم حفاة عراة منتنين) حيث صححها له ابو زيد الانصاري بقوله (منتنون) تنبيها على الخطــأ الاعــرابي فــي الصفــة .

وطريقــة تاليــف الكــلام واستخــدام الادوات النحوية والاعراب كلها من المباحث التي يتناولها النحو مع غيرها من المباحث التي تتعلق بالتركيب اللغــوي واسراره .

والذى افهمه ان ايراد مثل هذه الاخطاء النحوية في دراســة « لحن العامة » هو ايــراد لما حــدث في « اللغة الفصحى » وفي الاستعمال الخاص لهذه اللغة

---

(1) لحن العوام ص 12 .
(2) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص 38 .
(3 ــ 4) تصحيح التصحيف وتحرير التحريف ورقة 59 ــ 240 .
(5) تصحيح التصحيف وتحرير التحريف ورقــة 254 .
(6) المغنى ج 1 ص 157 .
(7) المغنى ج 1 ص 651 .
(8) رسالة في اغلاط العوام ورقة 122 .

في مجالات المواقف الجادة من القول بين العلماء والخاصة ، ويصح بناء على ذلك قبول ما رآه بعض الدارسين من ان « العوام » الذين اضيف اليهم « اللحن » في كتب « لحن العوام » هم عوام العلماء والخاصة ، فهو راي يقبل عن هذه الاخطاء القليلة التي تتعلق بالتركيب والاعراب اما غير ذلك من مظاهر اللحن المتعلقة بالمعاني او بنية الكلمات، وكذلك في هذا المظهر في اضافته الى العامة من الناس العاديين ، فالغلب ظني ان كل ذلك كان شائعا الى حد الكثرة ، وانه لم يكد القرن الثاني ينقضي حتى تنوعت العاميات وكثرت الاخطاء بين الناس العاديين والمتخصصين على سواء .

لكن : متى بدا اللحن في الكلام العربي وكيف تطور ؟

لا يستطاع الوصول الى حقيقة حاسمة عن هذه الظاهرة في العصر الجاهلي ـ شانها في ذلك شان كثير من ظواهر اللغة والادب من هذا العصر ـ فان كثيرا من شؤون الجاهلية تكاد تكون مطموسة تماما ، او على الاقل غير مؤكدة ، اذ تعتمد على الظن الغالب لا الادلة المقنعة ، والغالب ان اللغة العربية في العصر الجاهلي كان لها مستويات متعددة ، تختلف فيما بينها باختلاف القبائل وعرف كل قبيلة في لهجتها ، وان اللغة العامة التي كانت وسيلة التفاهم بين الجميع حدث فيها احيانا اللحن والخطأ ، ولو صح ان الاهتمام باللغة ودراستها قد تقدم به الزمن الى العصر الجاهلي ، لجاءتنا كتب في «لحن العامة» عن هذا العصر كما حدث في القرن الثاني الهجري وما تلاه حين نضجت الدراسة وتنوعت ، وكان اللحن احد المظاهر التي اهتمت بها . وقد روى ان طرفة بن العبد قال وهو صغير :

يا لك من قبرة بمعمر
خلا لك الجو فبيضي واصفري

ونقري ما شئت ان تنقري
قد رفع الفخ فماذا تحذري

لا بد يوما ان تصادى فاصبري (1)

فما هو الوصف الذي كان من المتوقع ان يطلقه النحاة على عبارة (ماذا تحذري) غير الضرورة او اللحن على ان النحاة انفسهم قد خطاوا فيما بعد قول النابغة الذبياني :

فبت كأني ساورتني ضئيلة
من الرقش في انيابها السم ناقع

وقالوا : كان حقه ان يقول (ناقعا) لا (ناقع) فان النكرة لا تصف المعرفة .

وعلى كل حال فان كلمة «اللحن» قد ترددت بين العرب مع ظهور الاسلام فيما نقل عن عهده المبكر ، اذ نقل ان الرسول (ص) قال : انا من قريش ، ونشات في بني سعد فاني لي اللحن ، ونقل عن الصديق (ص) قوله : لان اقرا فاسقط احب الي من ان اقرا فالحن . و«ان قصة الكتاب المشهور الذي بعث به من العراق ابو موسى الاشعري الى عمر بن الخطاب وجاء فيه « من ابو موسى الاشعري » وما رد عليه عمر من قوله: اضرب كاتبك سوطا واحدا واجز عطاءه سنة (2) .

فان هذه الروايات المتناثرة ـ ان صحت ـ تدل على معرفة اللحن في ذلك العصر وفيما قبل ذلك العصر الاسلامي المبكر ، اذ ان استخدام اللفظة في ذلك الوقت المبكر وفهم المقصود منها حينذاك قد سبقه ما يسوغ هذا الاستخدام وذلك الفهم ، وفي ذلك دلالة غير مباشرة على حدوث ذلك في الجاهلية وان لم ينقل ذلك وتتناقل مظاهره .

وحين تاخر الزمن قليلا ـ في عهد الامويين في القرن الاول الهجري ـ اصبح اللحن قضية ذات خطر في استعمال اللغة ، وهذا طبيعي ! اذ اتسعت الدولة الاسلامية ، وكثرت دواعي الاختلاط بالاجانب من الحرب والجوار والخدمة والمعايشة ، وجاءت عن ذلك روايات تصور مواقف حدث فيها اللحن بين الخاصة وفي حضرة الخلفاء ؛ وهي لهذا السبب نفسه استحقت الرواية والتناقل ، ولنا ان نتخيل الاخطاء الكثيرة مما لم ينقله احد او يعني به ، لانه كان يحدث بين الناس العاديين من جمهرة العرب والمسلمين ، واكبر الدلالة على ضخامة ذلك وكثرته انه كان سببا في بداية النحو العربي حول النصف الاول من القرن الاول الهجري على اختلاف الرواة فيمن تنسب اليه تلك النشأة .

---

(1) بلوغ الارب في معرفة احوال العرب جـ 3 ص 110 .
(2) انظر : مراتب النحويين ص 5 ـ 6 .

* كان لخالد بن يزيد بن معاوية اخ ، فجاءه يوما فقال : ان الوليد بن عبد الملك يعبث بي ويحتقرني ، فدخل خالد على عبد الملك ـ والوليد عنده ـ فقال : يا امير المؤمنين ، ان الوليد قد احتقر ابن عمه عبد الله واستصغره ـ وعبد الملك مطرق ـ فرفع رأسه وقال : (ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها ـ الآية) فقال خالد (واذا اردنا ان نهلك قرية ـ الآية) فقال عبد الملك : اني عبد الله تكلمني وقد دخل علي فما اقام لسانه لحنا !! فقال خالد : افعلى الوليد تعول !؟ فقال عبد الملك : ان كان الوليد يلحن ، فان اخاه سليمان ، فقال خالد : وان كان عبد الله يلحن ، فان اخاه خالد ـ في كلام كثير طويل (1) .

* تكلمت هند بنت اسماء بن خارجة ، فلحنت وهي عند الحجاج ، فقال لها : اتلحنين وانت شريفة في بيت قيس !! فقالت : اما سمعت قول اخي مالك لامرأته الانصارية ؟ قال : ما هو ؟! قالت :

منطق صائب وتلحن احيانا
وخير الحديث ما كان لحنا

فقال لها الحجاج : انما عنى اخوك اللحن في القول ـ اذا كنى المحدث عما يريد ـ ولم يعن اللحن في العربية فاصلحي لسانك (2).

* وروي عن الاصمعي قوله : اربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل ، الشعبي وعبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف وابن القرية ، والحجاج افصحهم (3) .

والواضح من هذه الروايات الثلاث انها جاءت عن شخصيات لها تميزها في العصر الاموي سواء من حدثت منه او من حدثت في حضرته او من قيلت منه ، ويعود هذا التميز الى انهم من اصحاب الحكم او من اهل العلم في العصر الاموي ، فكيف كان الامر بين العوام من الناس ؟! ومع ذلك فانها تدل على العار والاحتقار اللذين يتعرض لهما من « يلحن » في حديثه ، كما هو واضح في تلك الملاحاة الحادة بين خالد بن يزيد وعبد الملك عن عبد الله بن يزيد والوليد ابن عبد الملك كما ان فيها دلالة على التشدد والعنف مع من يلحن في كلامه كما هو واضح في ذلك الانكار والردع من الحجاج لهند بنت اسماء ـ كما تدل في الجانب المقابل على ان «الخلو من اللحن» يمثل الجانب الشريف الذي يستحق به صاحبه الفخر والثناء ، كما هو واضح من اسلوب الاعجاب الذي يقرر به الاصمعي هذه الحقيقة عن الشعبي وعبد الملك والحجاج وابن القرية .

فما روي من « مواقف اللحن » في القرن الاول الهجري قد لابسه العار والاحتقار او الانكار والردع، او استحقاق من يعري عنه الفخر وحسن الذكر مما يفهم منه ان اللحن كان يمثل في ذلك الوقت امرا جديدا خطيرا ، او بعبارة ادق : ان شيوعه بين الناس كان ظاهرة جديدة خطرة يستحق من يبرأ منها الثناء والشكران ، كما يستحق مرتكبها الزجر والنكران .

فاذا ما تأخر الزمن الى القرن الثاني الهجري ـ وبخاصة النصف الثاني منه وما تلاه ـ اصبح ما كان احساسا بالخطر خطرا حقيقيا ملموسا ، وما كان مواقف متناثرة تذكر فتنكر امرا شائعا بين الناس من غير نكير ، وترتب على ذلك نشاط علمي متنوع ، ففي رواية اللغة رحل العلماء للبادية ، وانصرفوا عن الحضر بعد ان شاع فيه اللحن ، فلم تعد اللغة ـ في نظرهم ـ اهلا للنقل والاحتجاج ، وفي الدراسة اللغوية نشطت حركة التنقية التي بدأت في هذه الفترة بكتاب الكسائي الذي لا يزال موجودا بين ايدينا للآن عن « ما تلحن فيه العامة »

* قال الرشيد يوما لبنيه : ما ضر احدكم لو تعلم من العربية ما يصلح به لسانه ، أيسر احدكم ان يكون لسانه كلسان عبده او امته (4) !! .

* ودخل الفراء يوما على الرشيد ، فتكلم بكلام لحن فيه ، فقال جعفر بن يحيى : يا امير المؤمنين انه قد لحن ، فقال الرشيد للفراء : أتلحن يا يحيى ؟! فقال : يا امير المؤمنين : ان طباع اهل البدو الاعراب ، وطباع اهل الحضر اللحن ، فاذا حفظت او كتبت لم الحن ، واذا رجعت الى الطبع لحنت ، فاستحسن الرشيد كلامه (5) .

---

(1) صبح الاعشى ج 1 ص 168 .
(2) امالي المرتضى ـ القسم الاول ص 15 .
(3) امالي الزجاجي ص 20 .
(4) صبح الاعشى ج 1 ص 168 .
(5) صبح الاعشى ج 1 ص 173 .

* وكان الرشيد مما يعجبه غناء الملاحين فى الزلالات اذا ركبها، وكان يتاذى بفساد كلامهم ولحنهم، فقال : قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعرا يغنون فيه ، فوجه الى ابي العتاهية — وهو سجين — فصنع لهم « زهديته » التى ابكت الرشيد حين سمعها منهم ، وفيها :

نح على نفسك يا مسكين ان كنت تنوح
لتموتن وان عمرت ما عمر نوح (1)

وقد اخترت هذه النماذج الثلاثة قصدا عن « عهد الرشيد » الذى عاصر الفترة الاخيرة من القرن الثاني ، وهي تدل على الامور الآتية :

ان اجادة الفصحى اصبحت صناعة يحث الرشيد ابناءه على الاخذ منها بما يصلح النسان كيلا يكونوا كمن يخالطونهم من العبيد والاماء فى اللحن والخطأ .

وان العلماء انفسهم كانوا يلحنون فى حياتهم العادية ، ولم يروا ذلك عيبا يغض من شأنهم ، وقد اعترف بذلك الفراء قائلا « اذا حفظت او كتبت لم الحن ، واذا رجعت الى الطبع ، لحنت » ونال هذا الاعتراف استحسان الرشيد ، لانه الحقيقة .

وان العامة كانوا اشد من ذلك لحنا ، ويمثلهم هؤلاء الملاحون فى الزلالات الذين يغنون على مقتضى طبيعتهم ، فيعجب غناؤهم الرشيد لكنه يتاذى بفساد كلامهم ولحنهم ، فمنع عن نفسه التاذي بتقديم الكلام الفصيح لهم لكن من السدى يمنع ذلك منهم او عن غيرهم حين يغنون او يتكلمون فى غياب الرشيد !!

وقد استمرت موجة اللحن قوية مندفعة ، واطرد نموها بتاخر الزمن ، فالقرن الثالث اقل حظا فى الفصاحة من القرن الثاني ، وفى الجانب المقابل عظم اللحن اكثر من ذى قبل .

وقد روى الجاحظ نوادر كثيرة من « اللحن فى القرن الثالث » فى كتابه البيان والتبيين مما سمعه ووصفه ، وعابه على من يتكلفون الفصاحة من علماء اللغة والاعراب، فقال : « ان اقبح اللحن لحن اصحاب التقعير والتقعيب والتشديق والتمطيط والجهورية والتفخيم ، واقبح من ذلك لحن الاعاريب النازلين على طرق السابلة ، وبقرب مجامع الاسواق (2) » واذا كان اللحن قد امتد الى هؤلاء الاعراب والعلماء المتقعرين فى نطق اللغة ، فلنا ان نتصور ما كان بين عامة الناس الذين لا يجيدون اللغة بالطبع او بالصنعة.

اما فى القرن الرابع الهجري — الذى انهى فى آخره الاستشهاد — فقد وصل الامر الى مده ، وطغى اللحن على الخاصة والعامة وعلى اصحاب الطبع فى البادية واصحاب الصنعة فى الحضر .

* يقول الآمدي : والمتاخرون لا يكادون يسلمون من اللحن ، وهذا فى اشعارهم كثير جدا (3).

* ويقول ابو جعفر النحاس : وقد صار اكثر الناس يطعن على متعلمي العربية جهلا وتعديا حتى انهم يحتجون بما يزعمون ان القاسم بن مخيمرة قال : النحو اوله شغل ، وآخره بغي (4) .

والآمدي وابو جعفر النحاس من علماء القرن الرابع الهجري الذين عاصروا فترة نهاية الاستشهاد باللغة الذى كان من اهم عوامله شيوع اللحن بين الناس حتى الشعراء انفسهم ، واصبح اللحن لا يكاد احد من المتاخرين يسلم منه — كما يقول الآمدي عن معاصريه — وصار اكثر الناس يطعن على متعلمي العربية جهلا وتعديا — كما يقول النحاس — ومن قبل كان تعلم العربية من الامور التى يتواصى بها الناس ، ويحض عليها الخلفاء والحكام ، وهكذا انقلب الامر ، فاصبح تعلم العربية من طريق الصناعة النحوية موضع سخرية الناس « والنحو اوله شغل وآخره بغي » — تماما كما كنا نعيش اليوم فى عصرنا الحاضر .

وليس من المفيد كثيرا ان نتابع تطور « قضية اللحن » بعد عصر الاستشهاد ، فقد اصبح «اللحن» هو القاعدة بين الناس فى حياتهم العامة ، وتسرب الى التاليف العلمي نفسه ، كما هو واضح فى بعض موسوعات التاريخ فى القرن السادس وما بعده — وسنأتي نماذج من ذلك — حتى قال احد المتاخرين « ان اللحن قد فشا فى الناس والالسنة قد تغيرت ، حتى صار التكلم بالاعراب عيبا ، والنطق بالكلام الفصيح عيا (5) » .

فماذا كان موقف علماء اللغة من هذه الظاهرة ؟

---

(1) انظر : الاغاني جـ 3 ص 171 .
(2) البيان والتبيين جـ 1 ص 146
(3) الموازنة جـ 1 ص 416 .
(4) صبح الاعشى جـ 1 ص 171 .
(5) صبح الاعشى جـ 1 ص 173 .

لقد نظر علماء اللغة اليه من زاوية « الخطا » فقاوموه بعنف ، ومع ذلك لم ينتصروا في معركتهم معه ، بل ان العكس هو الصحيح ، اذ انتصر اللحن بغلبة الاستعمال وقهر المجتمع اللغوي المتطور باستمرار .

وقد بدات هذه المقاومة منذ القرن الثاني الهجري ، واستمرت فيما تلا ذلك من عصور والجدول الآتي « لكتب لحن العوام » ومؤلفيها ـ مما عرفته على قدر جهدي ـ يوضح ذلك :

اسم الكتاب	المؤلف وتاريخ وفاته		الاشارة الى ما هو موجود
1 ـ ما تلحن فيه العوام	علي بن حمزة الكسائي	(172)	مطبوع
2 ـ ما يلحن فيه العامة	يحيى بن زياد الفراء	(207)	
3 ـ ما يلحن فيه العامة	لابي عبيدة معمر بن المثني	(210)	
4 ـ ما يلحن فيه العامة	لابن نصر احمد بن حاتم الباهلي	(231)	
5 ـ اصلاح المنطق	لابي السكيت يعقوب بن اسحاق	(244)	مطبوع
6 ـ ما يلحن فيه العامة	لابي عثمان المازني	(248)	
7 ـ ما يلحن فيه العامة	لابي حاتم السجستاني	(250)	
8 ـ تقويم اللسان (ادب الكاتب)	لابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة	(276)	مطبوع
9 ـ لحن العامة	لابي حنيفة احمد الدينوري	(290)	
10 ـ ما يلحن فيه العامة	لابي العباس احمد بن يحيى ثعلب	(291)	
11 ـ ما يلحن فيه العامة	لابي الهيذام كلاب بن حمزة العقيلي	(300)	
12 ـ اللحن الخفي	هاشم بن احمد الحلبي	(377)	
13 ـ لحن العوام	لابي بكر محمد بن الحسن الزبيدي	(380)	مطبوع
14 ـ لحن الخاصة	لابي هلال العسكري	(395)	
15 ـ تثقيف اللسان	عمر بن مكي الصقلي	(501)	مطبوع
16 ـ درة الغواص	لابي محمد القاسم بن علي الحريري	(516)	مطبوع
17 ـ تكملة اصلاح ما تغلط فيه العامة	لابي منصور الجواليقي	(539)	مطبوع
18 ـ تقويم النسان	لابي الفرج عبد الرحمن الجوزي	(597)	مصور
19 ـ لحن العامة	ابن هشام محمد بن احمد اللخمي	(600)	مصور
20 ـ ناظر انسان عين المعاني	محمد بن احمد بن جامع	(727)	مصور
21 ـ لحن العامة	لابن هاني محمد بن علي السبتي	(733)	
22 ـ غلطات العوام	جلال الدين السيوطي	(911)	مخطوط
23 ـ التنبيه على غلط الجاهل والنبيه	لابن كمال احمد بن سليمان	(940)	مطبوع
24 ـ بحر العوام فيما اصاب فيه العوام	رضى الدين محمد بن ابراهيم الحنبلي	(971)	مطبوع
25 ـ غلطات العوام	مصطفى بن محمد خسرو زاده	(1000)	مصور
26 ـ لف القماط لتصحيح ما استعملته العامة	محمد صديق بن حسن البخاري	(1307)	مطبوع
27 ـ اغلاط العوام والخواص	(مجهول)		مصور
28 ـ سقطات العوام	(مجهول)		مصور
29 ـ اصول الكلمات العامية	حسن توفيق العدل	(1322)	مطبوع
30 ـ تهذيب العامي والمحرف	حسن علي البدراوي	( )	مطبوع

ملاحظات على مقاومة العلماء اللحن :

1 ـ بنظرة واحدة الى الجدول السابق الذى امكنني معرفة مافيه من كتب لحن العوام ـ الموجود منها والمفقود ـ يتضح ان مقاومة العامية كان شديدا فى القرن الثاني والثالث والرابع ثم بدا يقل تدريجيا بعد ذلك ، ولهذا دلالته ، حيث قاوم العلماء بقوة مظاهر اللحن فى الفترة التى كانت اللغة موردا للدراسة ، والصلة قريبة بين المادة التى اعتقدوا نقاوتها حين ترد من البادية ، وبين تنقية الفصحى المستخدمة فى الحضر قياسا عليها .

2 ـ كان من المفترض ان تعتمد التنقية على استقراء لاستعمال اللغة التى يعاصرها المؤلف والتى تستعمل بين الناس فى عصره ، ولكن الذى حدث ـ فيما اطلعت عليه منها ـ لم يكن كذلك، بل اعتمد اللاحقون على جهود السابقين ، فكانوا ينقلون غالبا ما اورده من سبقوهم فى كتبهم وعلى سبيل المثال اعتمد ابن قتيبة فى « تقويم اللسان» على ابن السكيت فى «اصلاح المنطق» واعتمد الزبيدي فى «لحن العوام» على من سبقه من العلماء ، فكان يذكر اسماءهم دون كتبهم ـ واعتمد ابن الجوزي فى «تقويم اللسان» على كتب من سبقوه ، وذكر فى مقدمة الكتاب انه جمع فيه ما رآه مبددا فى كتب من سبقوه ، وانتخب من ذلك ما تمم به الباوى دون ما يشذ استعماله ويندر ، ونقل السيوطي كتاب ابن الجوزي برمته ، ونسبه لنفسه تحت عنوان « غلطات العوام » .

3 ـ يلاحظ انه يقصد بالعوام والعامة فيما اطلعت عليه من تلك الكتب الناس العاديون بدليل النص احيانا على الخواص والخاصة ، ولكن الذى قصدوه بالتنقية هو اللغة الفصحى بعد ان اصبحت تستعمل فى مستوى خاص ، وتسرب اليها « لحن العوام » فبقيت النسبة الى العوام، وان كان المقصود بذلك ما حدث فى اللغة الفصحى التى يستعملها الخاصة ، وبذلك نفهم قول الزبيدي (فى مقدمة كتابه « لحن العوام » ص 8) « فهذا مما افسدته العامة عندنا ، فاحالوا لفظه او وضعوه غير موضعه ، وتابعهم على ذلك الكثرة من الخاصة ، حتى ضمنته الشعراء اشعارهم ، واستعمله جلة الكتاب وعنية الخدمة فى رسائلهم ، وتلاقوا به فى محافلهم ، فرايت ان انبه عليه ، وابين وجه الصواب فيه » .

وعلى ذلك فانه لا معنى للتكلف بتوجيه معنى (العامة) الى «عامة العلماء» كما حاول ذلك بعض الدارسين فى العصر الحديث .

4 ـ تمنيت ان اجد فى احد هذه الكتب حديثا عن « اللحن » فكرة وموضوعا ، لكن لم تتحقق لي تلك الامنية فى احدها ، اذ يتجه الحديث فيها مباشرة ـ بعد مقدمة قصيرة ـ الى ايراد الكلمات وبيان خطئها او صحتها اعتمادا على النقل فى غالب الاحيان كما سبق ذلك .

5 ـ ومع نظرة الى هذه الجهود الطيبة المخلصة فى الجدول السابق ـ والى غيرها مما لم اعرفه ـ يتساءل المرء : هل نجحت كل هذه الجهود فى حل قضية اللحن ، وايقاف تياره المتدفق ؟

تساؤل يتضح المقصود منه فى الفقرة التالية ان شاء الله .

نظرة النحاة الى اللحن بين القواعد والاستعمال :

ان تحديد نظرة النحاة الى اللحن امر يسير لا عسر فيه ، فقد نظروا اليه من زاوية « الخطا » واعتبروه انحرافا عن الطريقة الصحيحة التى ينبغي ان يأتي عليها النطق العربي السليم ، ولم يأخذ فى الاعتبار لديهم قوة الاستعمال وقهره ، وما يترتب على ذلك من تطور وتغير ، فان اللغة ـ شانها شان الظواهر الاجتماعية كلها ـ تتطور باستمرار فى معانيها وبنيتها وتراكيبها ولا تخضع طويلا للقواعد المنسقة والنظام الجميل ، لان اللغة نظامها الذى يفرضه استعمالها بين المتكلمين بها ، وعمل الباحث اللغوي ملاحقة التطور لا مصادرته ، وملاحظته لا تجميده ، فان المصادرة والتجميد لا يمكن تحقيقهما بالنسبة للغة نفسها ، وان امكن ذلك بالنسبة لدراستها ومن يدرسونها .

ونظرة النحاة لما اسموه «اللحن» من زاوية «الخطا» كان سندها « القواعد الحادة » التى وضعوها والزموا انفسهم بها ، وان لم يستطيعوا فرضها على الاستعمال المتطور باستمرار .

ويمكن توضيح ذلك وتاييده بالامور الثلاثة الآتية :

1 ـ جهود النحاة في مقاومة اللحن ودورانها حول القواعد .

2 ـ خضوع النحاة انفسهم لسطوة اللحن مع انهم حراس القواعد .

3 ـ التصاعد الذى قام ـ واستمر قائما ـ بين القواعد المصنوعة وواقع الاستعمال .

لقد ارتبطت بداية النحو بحدوث اللحن ، والروايات التى رويت عن ذلك كلها تقرر هذه الفكرة صراحة او تمثيلا بوصف صورة النطق الملحون فيه والذي كان الدافع المباشر لوضع القواعد،ويبدو انهذه الصلة بين القواعد واللحن فى فترة البداية ظلت قائمة بعد ذلك مع تقدم الزمن ونضج الدراسة ، وهي صلة قوامها التنافر بين القواعد وما خرج عن هذه القواعد من مظاهر اللحن ، على ان تكون القواعد ـ من وجهة نظر النحاة ـ هي الحكم فى هذه المظاهر ، او بعبارة اخرى ان القواعد هي « الصواب » وان ما لا يتفق معها من مظاهر الاستعمال هو « الخطأ » .

* قال ابن سلام : اضطرب كلام العرب ، فغلبت السليقة ولم تكن نحوية ، فكان سراة الناس يلحنون ، ووجوه الناس ، فوضع ابو الاسود باب الفاعل والمفعول به والمضاف وحروف الجر ، والرفع والنصب والجزم (1) .

* وروى القفطي عن ابي الاسود قال : دخلت على امير المؤمنين علي ـ عليه السلام ـ فاخرج لي رقعة فيها (الكلام كله اسم وفعل وحرف جاء لمعنى) قال : فقلت : ما دعاك الى هذا ؟ قال : رايت فسادا فى كلام بعض اهلي ، فاحببت أن ارسم رسما يعرف به الصواب من الخطأ ، فاخذ ابو الاسود النحو عن علي ـ عليه السلام ـ ولم يظهره لاحد (2) ، ثم اظهره فيما بعد .

وينبغي التوقف فى فهم هاتين الروايتين عن نشأة النحو عند عبارتين فيهما هما (غلبت السليقة ولم تكن نحوية) و (رايت فسادا فى كلام بعض اهلي فاحببت أن ارسم رسما يعرف به الصواب من الخطأ) فان هاتين الروايتين تؤيدان ما نزعمه عن طبيعة الصلة بين القواعد والسليقة غير النحوية التى يطلق عليها « اللحن » منذ البداية ، واتخاذ القواعد ـ منذ البداية ايضا ـ سلطة للتمييز بين « الصواب والخطأ » كما قال ـ عليه السلام ـ ان صحت نسبة الرواية الثانية .

وقد بقي هذا الفهم نفسه قائما على مدى الزمن ، اذ طبقة الدارسون ، وخضع له الناطقون بل ازداد مع تقدم الزمن قوة وثباتا ، وفى الوقت نفسه اطرد نمو طرفي القضية من « القواعد » و « السليقة غير النحوية » فزادت مؤلفات النحو تضخما ، وفى الجانب المقابل كان اللحن يزداد انتشارا ، وحين الف سيبويه « كتابه » كان اللحن فى الحضر خطرا صرف العلماء عن لغته الى البادية .

كما انه بالاطلاع على الكتب التى الفت نصا فى مقاومة اللحن ـ مر جدول عرضها فى الفقرة السابقة ـ يتضح فيها هذا الفهم نفسه الذى يجعل القواعد مقياسا للصواب فيما وسم باللحن والخطأ من معاني الكلمات وبنيتها وتراكيبها ، ويتبين ذلك فى طريقة العرض او فى ذكر القواعد احيانا لتصحيح الخطأ .

* قال الكسائي : وتقول : شكرت لك ونصحت لك ، ولا يقال : شكرتك ونصحتك وقد نصح فلان لفلان وشكر له ، هذا كلام العرب (3) .

* وقال ابن السكيت : باب ما جاء على (فعلت) بالفتح مما تكسره العامة او تضمه يقال (ما عسيت ان اصنع) قال الله جل ذكره (فهل عسيتم ان توليتم) ولا ينطق منها باستقبال (4) .

* وقال الحريري : يقولون : (انضاف الشيء اليه وانفسد الامر عليه) وكلا اللفظين ليستا من كلام

(1) طبقات فحول الشعراء ص 12 .
(2) انباه الرواه جـ 1 ص 5 .
(3) ما تلحن فيه العامة ص 25 .
(4) اصلاح المنطق ص 188 .

العرب ، وانما يقال (اضيف الشيء اليه وفسد الامر عليه) فلا يأتي منهما ذلك (1) .

فهذه نماذج يتبين منها كيفية الطريقة التي سلكها العلماء في جهودهم لمقاومة اللحن ، واذا كان الكسائي يصحح الخطأ قائلا (هذا كلام العرب) فابن السكيت والحريري يذكران « القواعد » مقاييس التصويب للاستعمال الموسوم بالخطأ واللحن ، فقاعدة ابن السكيت في المثال السابق هي « ما جاء على فعلت بالفتح مما تكسره العامة او تضمه » وقاعدة الحريري « المطاوعة تأتي من الثلاثي المتعدي ، اما الثلاثي اللازم فلا يأتي منه ذلك .

هذا هو طابع الجهد الذي بذل في مقاومة اللحن، يلخصه انه « التمسك بالقواعد اساسا للتصويب ، وايراد ما لا يوافق من مادة اللغة للحكم عليه بالتخطئة»

اما الامر الثاني الذي يدل على سطوة القواعد على اذهان الدارسين بمقدار ما يدل على سطوة الاستعمال على السنة المتكلمين فيمثله تلك المفارقة الطريفة عن افراد من علماء النحاة نسب الى بعضهم انه كان يتقعر ويغرب في حديثه على الناس حتى لا يكاد يفهم ، ونسب الى البعض الآخر انه كان يلحن في كلامه ، وربما امترف احيانا بوقوع ذلك منه ، ولم يعتبره شيئا ينقص من شأنه .

وعلى الرغم من ان هذين المظهرين يمثلان طرفين متباعدين في الكلام فان النظرة المدققة تكشف انهما يصدران عن ظرف لغوي واحد هو «سطوة الاستعمال» الذي وصفه ابن سلام بقوله « غلبت السليقة، ولم تكن نحوية» فقد دفع ذلك بعض النحاة التي التظاهر احيانا من التمكن من تلك السليقة النحوية : فاغربوا في حديثهم وفخموه ، واستسلم آخرون للاستعمال اللغوي الشائع ، فخضعوا له معترفين بانه الواقع وان خالف قوانين النحو وقواعد الاعراب .

ومن النحاة الاول الذين روي عنهم التقعر والاغراب عيسى بن عمر الثقفي (ت 149) الذي روي عنه ذلك في كتب الطبقات التي ترجمت له ، ومن ذلك هذا الموقف الطريف الذي كان يضرب فيه بالسياط لوديعة اضاعها وهو يصيح قائلا : « والله ما كان الا اليابا في اسيفاط قبضها عشاروك (2) »

وروي ذلك ايضا عن ابي علقمة النحوي الذي ساق السيوطي عنه المشهد الطريف التالي :

* مر ابو علقمة يوما على عبد حبشي وصقلبي ، فاذا الحبشي قد ضرب بالصقلبي الارض فادخل ركبتيه في بطنه ، واصابعه في عينيه ، وعض اذنيه ، وضربه بعصا فشجه ، وسال دمه ، فقال الصقلبي لابي علقمة : اشهد لي ، فمضوا الى الامير : فقال له الامير : بم تشهد ؟! فقال : اصلح الله الامير، بينا انا اسير على كودني ، اذ مررت بهذين العبدين ، فرايت الاسحم قد مال على هذا الابقع ، فحطاه على قدقد ، ثم ضغطه برضفتيه في احشائه ، حتى ظننت انه تدمج جوفه ، وجعل يلج بشناتره في جحمتيه يكاد يفقؤهما ، وقبض على صنارتيه بميرمه، وكاد يحذهما ، ثم علاه بمنساة كانت معه ، فمجفه بها ، وهذا اثر الجريان عليه بينا .

فقال الامير : والله ما فهمت مما قلت شيئا .

فقال ابو علقمة : قد فهمناك ان فهمت ، واعلمناك ان علمت ، واديت اليك ما علمت وما اقدر ان اتكلم الفارسية .

فجهد الامير في كشف الكلام حتى ضاق صدره، ثم كشف الامير راسه ، وقال للصقلبي : شجني خمسا ، واعفني من شهادة هذا (3) .

وقد يثير هذا المشهد ابتسامة الشفقة على ابي علقمة الذي يحمل نفسه هذا الجهد الثقيل من التقعر والاغراب ، امام الامير الذي يعاصره ولكنه لا يستطيع فهم كلامه ، لانه يمثل الاستعمال العادي للكلام ، ومع ذلك فان لابي علقمة من ظروفه الخاصة ومن ظروف عصره ما يقدم له العذر في طريقته الغريبة ، فهو نحوي قام في نفسه ان الكلام العادي داخله الفساد ، ومن حقه ان يستعمل طريقة توافق لغة النحو التي يستنبط منها قواعده .

اما لحن علماء النحو في حياتهم العادية واعترافهم بذلك ، فهو مظهر مهم ، اذ ان في هذا الاعتراف نفسه دلالة على سطوة الاستعمال حتى

---

(1) درة الغواص ص 22 .
(2) معجم الادباء جـ 16 ص 149 .
(3) بغية الوعاة جـ 2 ص 139

على النحاة الذين يناصرون القواعد ، ويفرضون سلطانها على الاستعمال اللغوي .

* اورد الاصفهاني ان مروان بن ابي حفصه وجه كلامه لحماد الرواية في حضرة الوليد بن يزيد فقال : ما كلام هذا في مجلس امير المؤمنين وهو لحانة !! فتهافت الشيخ ، ثم قال : يا ابن اخي ، انا رجل اكلم العامة ، واتكلم بكلامها (1) .

* ودخل الفراء يوما على الرشيد ، فتكلم بكلم لحن فيه ، فقال له جعفر بن يحيى : يا امير المؤمنين انه قد لحن ، فقال الرشيد للفراء : اتلحن يا يحيى !! فقال : يا امير المؤمنين ، ان طباع اهل البدو الاعراب وطباع اهل الحضر اللحن ، فاذا حفظت او كتبت لم الحن ، واذا رجعت الى الطبع لحنت ، فاستحسن الرشيد كلامه (2) .

* وقال ابو الطيب اللغوي : كان على المديني لا يغير الحديث وان كان لحنا ، الا ان يكون من لفظ النبي (ص) فكانه يجوز اللحن على من سواه (3) .

فهذه المواقف المتناثرة ـ على قلتها ـ قد اعترف فيها بعض النحاة على انفسهم باللحن وانهم يخضعون له جريا على استعمال بقية الناس ، لكنهم في مجال الدراسة ، لم ياخذوا ذلك في الاعتبار ، بل حكموا القواعد في ذلك ، وحكموا على مظاهر اللحن بالخطا

اما الامر الثالث والاخير ـ فيما نحن بصدده ـ فهو التصدع بين القواعد المصنوعة واستعمال اللغة ، وهذا امر حدث مبكرا ، ونقلت الينا بعض نماذجه في المشاحنات التي كانت تحدث بين العلماء والشعراء ، ومن ذلك ما حدث بين ابي اسحاق والفرزدق وبين الاخفش وبشار وبين ابن خالويه والمتنبي ـ ونماذجه اشهر من ان تذكر ـ وفي هذه المواقف ـ على قلتها ـ يتمثل ايضا الصراع بين القواعد في يد النحاة والاستعمال اللغوي الذي لا يخضع لتلك القواعد .

واذا كانت تلك المواقف القليلة تمثل هذه الظاهرة فقط ، فان واقع الامر اخطر من ذلك واكثر ، اذ ان مظهر الصراع بين القواعد التي استمسك بها النحاة والاستعمال اللغوي الذي لا يتوافق مع تلك القواعد ـ على الاقل منذ القرن الثاني الهجري ـ ترتب عليه اتساع الهوة دائما بين طرفي القضية ، فعانى النحاة من ذلك قديما ، وما زالت هذه المعاناة قائمة حتى اليوم .

اخيرا :

يتضح من عرض الامور الثلاثة السابقة لموقف النحاة مما اطلق عليه « اللحن » تاييد ما افتتحت به هذه الفقرة من رؤياهم له من زاوية « الخطا » وان الذي وجه هذه الرؤية هو مقياس (القواعد لا الاستعمال) وضح ذلك في جهودهم اللغوية ، وبعض مواقف حياتهم الشخصية ، وفي هذا الفراق والخصومة القائمة بين كلا الامرين القواعد والاستعمال .

تلك وجهة نظرهم ، اما مدى توفيقهم فيها ، فله حديث آخر في القسم الاخير من هذا البحث ان شاء الله .

— * —

« التصحيف والتحريف »

معنى التصحيف والتحريف وعلاقاتها باختلاف المعنى والبنية والاعراب :

« التصحيف والتحريف» لفظتان بينهما صلة حميمة ، وقد جمعهما العلماء احيانا عنوانا لمؤلف واحد ، كما فعل ابو احمد العسكري في مؤلفه « شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف » وكما فعل من بعده الصفدي في كتابه الموسوعي « تصحيح التصحيف وتحرير التحريف» وقد شرح « التهانوي » في « كشاف اصطلاحات الفنون » المقصود منهما في مكان واحد .

وتعود الصلة بين اللفظتين ـ مع التجاوز عما فيهما من جناس لفظي ـ الى ان مجال البحث فيهما ـ كما فهمه المتقدمون من العلماء ـ واحد ، وهو البحث عن الخطا الذي يحدث في نطق الكلمة العربية نتيجة الخطا الاملائي في قراءة الحروف المكتوبة ، سواء اكان الخطا في نقط الحروف او شكلها او تبادلها الامكنة .

فالتصحيف والتحريف مظهران للخطا في قراءة الخط المكتوب ، ويترتب على ذلك نطق كلمة جديدة

(1) الاغاني جـ 14 ص 110 .
(2) صبح الاعشى جـ 1 ص 173 .
(3) مراتب النحويين ص 6 .

قد تكون صحيحة لغة ومعنى ، لكنها غير الكلمة التى قصدها صاحبها حين نطق بكلامه ، او نطق كلمة ذات بنية محرفة فى صيغتها ، ويرجع انحرافها الى التغيير فى حروفها او الشكل الداخلي لها ، بل ان مؤلفات « التصحيف والتحريف » قد ورد فيها احياناً أمثلة ــ وان كانت قليلة ــ لاخطاء اعرابية تعود ايضا الى الخطأ فى الكتابة او التوسع فى فهم ما يطلق عليه « التحريف » بما يشمل ما يطلق عليه اسم « اللحن » ويتضح هذا المظهر الاخير فى كتاب الصفدي (ت 764) « تصحيح التصحيف وتحرير التحريف » اذ اورد كثيرا من امثلة «اللحن» فى كتابه، ويؤيد هذا نصا ما أورده فى بداية كتابه من انه نقله من السابقين عليه ، وقال « لم يكن لي فى هذا غير التهذيب وحسن الرصف فى التبويب الا ما يتخلل اثناء ذلك من تفسير وتقييد وتقرير وتمهيد» وقد عدد ما اعتمد عليه من كتب السابقين ، وكان منها ما هو نص فى « لحن العوام » مثل «ما تلحن فيه العامة» للزبيدي ، و « تثقيف اللسان » لابن مكي و « درة الغواص » للحريري ، و«تقويم اللسان» لابن الجوزي الخ .. فما صنعه الصفدي يحتمل امرين ، الرغبة فى تضخيم كتابه فأورد فيه ما يتعلق « باللحن » ايضا وان لم يكن من «التصحيف والتحريف» او التوسع فى فهم المقصود « بالتحريف » بما يشمل اللحن ايضا، وسواء اكان هذا او ذاك ، فان ما يهم فى هذا الموضع ان الصفدي قد اورد فى كتابه كثيرا من امثلة « اللحن » وان غيره من سابقيه قد ورد ذلك عندهم على قلة .

لكن « ليس معني ما تقدم إن كل واحدة من اللفظتين « التصحيف والتحريف» لم تكن تستخدم الا ومعها الاخرى ملازمة لها ، فان لفظة « التصحيف » استخدمت وحدها كثيرا فى مواقف الخطأ فى القراءة التى رويت امثلتها عن علماء القرن الثاني الهجري مما نقلته الينا كتب الادب العامة او الكتب المؤلفة نصا فى موضوع « التصحيف والتحريف » فيما بعد ، وقد جاءتنا عناوين تلك المؤلفات مقتصرة على تلك اللفظة وحدها واقدمها ــ فيما اعلم ــ ما صحف فيه الكوفيون للصولى (ت 335) و « التنبيه على حدوث التصحيف » لحمزة بن الحسن الاصبهاني (ت 360) ويبدو ان كلمة « التصحيف » استخدمت وحدها اولا فى وصف خطأ القراءة لما هو مكتوب ، ثم انضمت اليها فيما بعد كلمة « التحريف » مع تداخل المقصود منهما او تخصيص كل واحدة منهما بنوع من خطأ القراءة كما سيتبين بتفصيل فيما بعد .

هذه مقدمة عامة عن لفظتي « التصحيف والتحريف » من حيث الصلة بين معنييهما واستخدام العلماء لهما ، لندرج من ذلك الى بيان الامور الآتية عن هذين المظهرين من مظاهر الخطأ فى اللغة من وجهة نظر علمائنا الاقدمين :

1 ــ التحديد النظري لمعنى التصحيف والتحريف .

2 ــ سبب وقوع ذلك فى الكتابة العربية خاصة .

3 ــ علاقة مظاهر الخطأ التى ترتبت على ذلك فى المعنى والبنية والاعراب والبحث فى اللغة مع انها تعود اصلا الى رسم الكتابة .

قبل سوق ما ذكره العلماء عن معنى «التصحيف والتحريف » ينبغي اولا معرفة انواع التغيير التى يمكن ان تحدث فى قراءة الكتابة العربية ، ويترتب عليها رواية خاطئة ، وهي اربعة يوضحها الجدول الآتي :

تغيير فى النقط		تغيير فى الحركات		تغيير فى الحروف		تغيير فى الاعراب
الكلمة	مقابلها	الكلمة	تغييرها	الكلمة	تغييرها	لو قرأ قارىء فى المصحف (أن الله
الثوم	النوم	جمهور	جمهور	المباس	المباط	بريء من
العسل	الفسل	دمشق	دمشق	ببغان	بغبغان	المشركين ورسوله)
رحل	رجل	عفريت	عفريت	رجل	راجل	بكسر اللام فى
هم	غم	رصاص	رصاص	عن الله عن	عن إلله عن	(رسوله)
القاضية	القاضية	قنديل	قنديل	وخيل سراحية	رجيل شواتيه	

وهذه النماذج السابقة قد ورد لها مواقف ونصوص تؤيدها ليس هنا مجال ذكرها ، فان القصد من ذكرها هنا ايضاح انواع التغيير تمهيدا لايراد آراء العلماء من التصحيف والتحريف .

* قال حمزة الاصفهاني : أجاب اهل المعاني في معاني التصحيف فقالوا : ان يقرا الشيء بخلاف ما اراده كاتبه ، وعلى غير ما اصطلح عليه في تسميته ، واما لفظ (التصحيف) فان اصله ، ـ فيما زعموا ـ ان قوما كانوا اخذوا العلم عن الصحف من غير ان يلقوا فيه العلماء ، فكان يقع فيما يروونه التغيير ، فيقال عندها : قد صحفوا فيه ، اي : رووه عن الصحف ، ومصدره (التصحيف) مفعوله (مصحف) فاما (المصحف) فماخوذ من (اصحف اصحافا) واصله ان الصحف جمعت فيه ، فقيل : قد اصحف ـ ولو سمي التصحيف تغييرا او تبديلا جاز (1) .

* قال ابو احمد العسكري : فاما معنى قولهم (الصحفي والتصحيف) فقد قال الخليل : ان الصحفي الذي يروي الخطا على قراءة الصحف باشباه الحروف . (2)

* قال المراكشي : المخالفة في الحديث ان كانت بتغيير حرف او حروف مع بقاء صور الخط ، فان كان ذلك بالنسبة للنقط فالمصحف ، وان كان بالنسبة للشكل فالمحرف .. واما اللحن فمما يرجع للاعراب (3)

* قال التهانوي : قالوا : مخالفة الراوي للثقات ان كانت بتغيير الحروف او الحروف مع بقاء صورة الخط في السياق ، فان كل ذلك بالنسبة الى النقط يسمى ذلك الحديث (مصحفا) وان كان بالنسبة الى الشكل والاعراب سمي (محرفا) ـ وابن الصلاح وغيره سمي القسمين (محرفا) . (4)

ومن هذه الروايات الاربع لا يخرج المرء بتحديد حاسم موحد للمقصود بكل من التصحيف والتحريف، ولا يخرج كذلك بتحديد حاسم لما يشمله التصحيف والتحريف من انواع التغيير السابقة اذ ان الذي يفهم من حديث الاصفهاني والعسكري عن (التصحيف) انه كما قال اولهما نصا « ولو سمي التصحيف تغييرا او تبديلا جاز » فهو اذا مطلق تغيير او تبديل في قراءة الشيء على غير ما اراده كاتبه ـ كما عرفه الاصفهاني ـ او رواية الخطا على قراءة الصحف باشباه الحروف ـ كما عرفه العسكري رواية عن الخليل ـ سواء اكان ذلك في النقط او الشكل او الحروف .

لكن المراكشي يفرق فيما تناوله من التغيير الذي يحدث للحديث بين التصحيف والتحريف ، بان اولهما يكون في تغيير النقط فقط ، واما ثانيهما فيكون في الشكل ، ويتوقف عند هذا الحد ويزيد عليه التهانوي ان التحريف يكون في الشكل والاعراب ايضا ، وان بعض العلماء يسمي كل ما يحدث له تغيير « محرفا » .

والحقيقة ان المطلع على نماذج التصحيف والتحريف في مصادرها يلاحظ ان الامثلة التي ترد عن ذلك يتنوع التغيير فيها دون ان ينص على أن هذا تصحيف وذاك تحريف وان منها ما يتعلق بتغيير النقط او الشكل او الحروف واحيانا الاعراب .

ومن كل ذلك نستخلص الامور التالية دون تحديد حاسم :

اولا : ان كلا من التصحيف والتحريف يطلقان على رواية الخطا الناتج عن قراءة الرسم العربي ويدلان على مطلق التغيير والتبديل فيما يتعلق بذلك .

ثانيا : يكاد يكون من المتفق عليه ان التغيير الذي يحدث في النقط والشكل والحروف املائيا يندرج تحت « التصحيف والتحريف » اما التغيير في الشكل الاعرابي فالظاهر انه خارج عن هذا الموضوع ، فنماذجه قليلة في كتب المتقدمين الخاصة بالتصحيف والتحريف وان اكثر الصفدي ـ وهو متاخر ـ من

---

(1) التنبيه على حدوث التصحيف ص 36
(2) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص 13
(3) منح المغيث في جواز اللحن في الحديث ص 5
(4) كشاف اصطلاحات الفنون جـ 3 ص 836 .

هذه النماذج في كتابه « تحرير التحريف » لانه اعتمد فيه على كتب لحن العوام ، ونقل منها ما ضخم به كتابه .

ثالثا : ان كلمة « التصحيف » في هذا النوع من الخطأ ذات شهرة تفوق في ذلك كلمة « التحريف » وربما كان ذلك لقرب دلالتها على هذا النوع وارتباطها بسببه الذي هو القراءة من الصحف .

رابعا : الفرق بين « التصحيف والتحريف » و « اللحن » أن النوع الاول يتعلق بالخطأ المترتب على قراءة الخط ، أما الثاني فمنشؤه خطأ النطق لعدم اجادة اللغة .

لكن ما هو السبب أو الاسباب التي جعلت هذه الظاهرة تحدث في رواية اللغة ؟ !

والاجابة على ذلك بعبارة مختصرة هي « يرجع السبب الاساسي في ذلك الى الخط العربي وقابليته للتصحيف » ذلك أن حروفه متشابهة يميز بينها النقط التي توضع فوقها أو تحتها كما أن التمييز بين صيغ الكلمات يعتمد على الحركات التي اعتبرت تابعة للحروف، ولم تعتبر في الرسم العربي حروفا مستقلة، بل رسمت أولا نقطا فوق الحروف وتحتها وبين يديها ولما حدث الاعجام ـ وهو نقط كذلك ـ ومع تقدم الزمن ، أحدث الخليل بن احمد رسمها ابعاضا للحروف ، كما هي الصورة المستعملة حتى اليوم .

فالخط العربي في البداية لم يكن منقوطا ولا مشكولا ، كما حدث ذلك في المصاحف الخمسة التي كتبها عثمان للامصار ، واستمر الناس يقرؤون فيها ـ على هذه الصفة ـ ما يقرب من نصف قرن من الزمان، وفي عهد عبد الملك بن مروان ـ حين كثر الخطأ والتغيير ـ وضع نصر بن عاصم ـ فيما يقال ـ النقط على الحروف للدلالة على ما سمي فيما بعد «بالشكل» ثم كان الاعجام الذي يميز بين الحروف المتشابهة كالجيم والحاء مثلا ، وكانت نقط الشكل تباين في شكل المداد نقط الاعجام ، واستمر الامر كذلك على ما فيه من مشقة ـ الى أن أحدث الخليل ـ فيما يقال ـ الشكل الذي يرسم على هيئة ابعاض الحروف فاراح الناس بذلك من مشقة الكتابة بنوعين من النقط .

فطريقة الرسم العربي في تشابه حروفه وتمييزها بالنقط وضبط نطقها بحركات ـ لم يكن لها رسم خاص بها مطلقا ، ثم رسمت منفصلة وتابعة للحروف العربية ـ يعود اليها المسئولية الاولى من ظاهرة « التصحيف والتحريف » .

ومع ذلك فقد عاون على اشاعة هذه الظاهرة وخطرها « النساخ » الذين يسمون « بالوراقين » اولئك الذين تنحصر جهودهم في احتراف الوراقة لنسخ الكتب العلمية وبيعها للناس ، ولم يكن النساخ والوراقون غالبا على علم باللغة ، حتى يتمكنوا من التمييز بدقة بين كلمة وكلمة يعتمد التمييز بينهما على نقطة او حركة او تغيير أحد الحروف ، وحينئذ يحدث الخلط بين ذلك في الكتابة ، وهذا نفسه معنى التصحيف والتحريف .

ويشترك في هذه المسؤولية ايضا ـ على قلة ـ علماء اللغة انفسهم، فان احدهم قد يفهم الكلمة فهما خاصا بسوقه السياق له ، أو بسوقه هو لنفسه ، ثم يقرؤها ويرويها كما فهم وان لم يتفق ذلك الفهم مع اصلها وما قصده منها صاحبها ، ويترتب على ذلك ايضا حدوث التصحيف ، ومما يؤيد ذلك عناية مؤلفات « التصحيف والتحريف » بايراد تصحيفات العلماء في قسم خاص بهم ، بل ان بعض هذه المؤلفات يفرق بين البصريين والكوفيين في ذلك ، فيذكر اشهر العلماء من الفريقين مع ذكر نماذج من تصحيفات كل واحد منهم ، وأول اثر في هذا الموضوع ـ فيما اعلم ـ هو كتاب الصولي، وعنوانه « ما صحف فيه الكوفيون » وقد أورد حمزة الاصفهاني في كتابه « التنبيه على حدوث التصحيف» قسما خاصا للعلماء سماه « تصحيفات العلماء في شعر القدماء ص 68 وما بعدها » وعدد من علماء المصريين خمسة وعشرين عالما ، فأورد نماذج من تصحيفاتهم ، وفعل مثل ذلك ابو احمد العسكري ، فجعل قسما خاصا لـ(ما وهم فيه علماء البصريين) وقسما آخر عن « ما وهم فيه علماء الكوفيين » .

فهذه الامور الثلاثة السابقة ـ الرسم العربي والنساخ ووهم العلماء ـ يعود اليها مجتمعة مسئولية « التصحيف والتحريف » وان كان الرسم الكتابي اعظمها مسئولية في ذلك .

* قال حمزة الاصبهاني : الذي ابدع صور حروف كتابة العرب لم يضعها على حكمة ، ولا احتاط لمن يجيء بعده وذلك انه وضع لخمسة احرف صورة واحدة ، وهي (الباء والتاء والثاء والياء والنون) ـ كما

وجه الحكمة فيه أن يضع لكل حرف صورة مباينة للاخرى حتى يؤمن عليه التبديل (1) .

* وقال الجاحظ عن تحريف النساخ : لربما اراد مؤلف الكتاب ان يصلح تصحيفا او كلمة ساقطة فيكون انشاء عشر ورقات من حر اللفظ وشريف المعاني ايسر عليه من اتمام ذلك النقص ، حتى يرده الى موضعه من اتصال الكلام .... ثم يصير هذا الكتاب بعد ذلك نسخة لانسان آخر فيسير فيه الوراق الثاني سيرة الوراق الاول ، ولا يزال الكتاب تتناوله الايدي الجانية والاعراض المفسدة حتى يصير غلطا صرفا وكذبا مصمتا (2) .

* وقال ابو احمد العسكري : فالاحتراس من التصحيف لا يدرك إلا بعلم غزير ورواية كثيرة وفهم كبير وبمعرفة مقدمات الكلام وما يصلح ان يأتي بعدها مما يشاكلها ،وما يستحيل مضامته لها ومقارنته بها ، ويمتنع من وقوعه بعدها ، وتمييز هذا مستصعب عسير (3) .

فهذه النصوص الثلاثة متجمعة تحتوي على العوامل التي يحدث بها التصحيف والخطأ في رواية اللغة بناء على ذلك ، واخطرها ما ذكره الاصبهاني من « اتخاذ الصورة الواحدة في الكتابة للدلالة على الحروف المتعددة » وهذا ـ في فهمي ـ نموذج للتشابه بين الحروف في الصورة .

يترتب عليه التغيير والتبديل الذي هو معنى التصحيف والتحريف بصورة عامة تشمل هذا النموذج وغيره من مظاهر التغيير في الكتابة .

والجاحظ يصور بمرارة واسف ما يحدث للنصوص والمؤلفات من جناية وفساد بسبب تداولها بين النساخ ـ ومن ذلك التحريف طبعا ـ وما يعانيه المؤلف ـ ومثله المحقق ـ من مشقة اذا اراد اصلاح ما فسد او اكمال ما نقص .

وضمانات الاحتراس من التصحيف تتلخص ـ من النص الاخير ـ في كثرة الرواية وسعة الفهم واليقظة لسياق الكلام اوله وآخره ، وكل ذلك ـ كما قال العسكري ـ مستصعب عسر حتى على العلماء ، ولا غرابة اذن في حدوث التصحيف منهم .

اما الفكرة الثالثة والاخيرة في هذه الفقرة فهي بيان الصلة بين خطأ التصحيف والتحريف ـ الذي يرجع في نشأته اساسا الى الرسم الكتابي ـ والبحث في اللغة .

ان الذي يرد على الذهن لاول وهلة ان هذا النوع من الخطأ يتعلق بالرسم الاملائي وقصور الكتابة العربية ، وينبغي بحثه في هذا النطاق ، ولا شأن لذلك بدراسة اللغة التي تتجه أصلا الى النطق لا الكتابة ، ويتفرع على ذلك أن الخطأ الذي يوجه باحث اللغة اليه اهتمامه هو خطأ اللغة حين تنطق ، اما الخطأ الذي يعود للكتابة ، فيتكفل به ما سماه ابن قتيبة في كتابه « ادب الكاتب » تقويم اليد » .

ذلك اعتراض وارد ، وفيه كثير من الحق ، فان قضية التصحيف والتحريف تعود الى الرسم العربي قبل أي شيء آخر ، ولو كان الامر مقتصرا على ذلك ما كان لها مكان في البحث عن الصواب والخطأ في اللغة ، لكن خطأ الكتابة لم يقتصر عليها ، بل تعدى ذلك الى اللغة المنطوقة ، وبدا ذلك في مظهرين :

الاول : ان رواية اللغة مشافهة كان لها صلة قوية بالكتابة .

الثاني : ان قراءة الكتابة ـ وهي نطق ـ حملت اخطاء التصحيف والتحريف في معاني الكلمات وبنيتها، بل ومخالفة قواعد النحو احيانا .

ان رواية اللغة بطريقة علمية منظمة بدأت نشاطها في القرن الثاني الهجري ، وأول الرواة العلماء ـ فيما هو مشهور ـ ابو عمرو بن العلاء (ت 154) وحماد الرواية (ت 155) ، وقد عاصرهم وجاء بعدهم رواة اللغة الذين يعود الفضل الى جهودهم الرائعة في جمع التراث اللغوي القديم كله ، ومن المعروف ان هؤلاء العلماء الرواة لم يقتصروا في رواية اللغة على ما عاصرهم فقط ، بل رووا الكثير عن العصور التي سبقتهم في الجاهلية والاسلام مما لم يعاصروه ، ولم يسمعوا قائليه ، وقد وصلهم ذلك من طرق متنوعة كان

---

(1) التنبيه على حدوث التصحيف ص 36 .
(2) انظر : الحيوان ج 1 ص 79 .
(3) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص 2 .

اهمها ـ كما قرر ذلك الباحثون في العصر الحديث(1) ـ ما كان مدونا بالرسم الكتابي وما دامت الكتابة لنصوص اللغة كانت مصدرا للرواية الشفهية التي تظاهر بها العلماء ، فقد انعكس خطأ التصحيف والتحريف بداهة على تلك الرواية الشفهية نطقا وقد اورد حمزة ابن الحسن الاصبهاني في كتابه « التنبيه على حدوث التصحيف » عبارة منطقية عن ارسطو تقول « كل كتابة تتشابه صور حروفها ، فهي على شرف تولد السهو والغلط والخطأ فيها ، لان ما في الخط دليل على ما في القول ، وما في القول دليل على ما في الفكر وما في الفكر دليل على ما في ذوات الاشياء » (2) ويصح فهم معنى هذه العبارة بطريقة اخرى بان نقول : ان ما في ذوات الاشياء ينعكس على الفكر ، وما في الفكر يعبر عنه القول والخط يثبت التعبير بالقول ويحافظ عليه، ويمكن الرجوع اليه حين ارادة النطق به مرة ثانية ، فاذا احتمل الخط الغلط والخطأ والوهم ، ظهر ذلك في النطق .

ويؤيد هذا الفهم النظري السابق ما حدث فعلا في كتب التصحيف والتحريف ، اذ ان وصفها لتحريف العلماء وتصحيفاتهم فيما اوردته من مواقف وامثلة جاء صريح الدلالة على ان ذلك قد حدث نطقا لا كتابة، وسماعا لا رسما .

ومما ساقه حمزة الاصبهاني عن العلماء المصحفين نصا قوله :

* ابو عبيدة : روى بيت امرىء القيس :

تجاوزت احراسا واهوال معشر
على حراص لو يسرون مقتلي

اي : اظهروا ، والصواب في رواية الاصمعي (لو يشرون مقتلي) ومعناها : يظهرون .

* ابو زيد : حكى ابن دريد عن ابي حاتم قال : انشدت الاصمعي :

(جايا ترى بليله مسجحا)

فقال : صحفت، وانما هو (ترى قليلة مسججا) ثم قال : من انشدك ؟! قلت : اعلم الناس فتغافل عني ـ وانما عنى ابو حاتم ابا زيد .

* اللحياني : املى اللحياني (مثقل استعان بذقنه) فقام اليه ابن السكيت ـ وهو حدث ـ فقال يا ابا الحسن ، انما تقول العرب (مثقل استعان بدفته) لان البعير اذا رام النهوض استعان بجنبيه ، فقطع الاملاء . (3) .

فالرواية والانشاد والاملاء كلها من صفات المشافهة لا من صفات الكتابة ، مما يدل على ما نحن بصدده من ان التصحيف والتحريف وان كان منشؤهما الرسم والكتابة ، فقد حمل خطاهما نطق اللغة وروايتها

ولقد سبق ان مظاهر التصحيف والتحريف تكون في تبادل الحروف المتميزة بالنقط ، او الشكل الذي يحدد نطق هذه الحروف ، ويفرق بين الصيغ ، او وضع حرف مكان آخر واحلاله محله مما يغير نطق الكلمة ، وينتج من ذلك احيانا مخالفة بعض الظواهر النحوية وان كان ذلك قليلا .

والذي يترتب على تبادل الحروف المتميزة بالنقط في التصحيف حدوث كلمات جديدة ذات معنى مخالف لما اراده منتج النص اصلا ، وقد تكون الكلمات المجدثة من التصحيف لا معنى لها على الاطلاق ، وانما هي هراء لغوي لا يفيد شيئا .

اما تغيير شكل الحروف فيترتب عليه في النطق امثلة جديدة تتدرج تحت صيغ صرفية مخالفة لما كانت عليه قبلا ، وقد تخرج عن صيغ الصرف ومقتضيات اللغة اصلا ، فيحكم عليها بالخطأ ، والاول من هذين النوعين انحراف في المعنى ، والثاني انحراف لغوي في بنية الكلمات .

وتغيير الحروف غير المميزة بالنقط يترتب عليه ايضا كلمات جديدة ذات معنى مغاير لما قصده منها صاحبها الاصلي ، او كلمات مجرفة البنية يحكم عليها ايضا بالخطأ .

---

(1) انظر : مصادر الشعر الجاهلي ، فقد تكفل البحث كله باثبات طرق نقل اللغة الى العلماء ومنها الكتابة . وساق لذلك ادلة مقنعة .
(2) التنبيه على حدوث التصحيف ص 37 .
(3) انظر : السابق ص 69 و 77 و 93 على التوالي .

واما ما يترتب على التصحيف والتحريف من خطأ النحو ، فيبدو اذا حدث التغيير في شكل آخر الكلمة او استخدام اداة في تركيب لغوي لا يتطلبها المعنى النحوي له ، وهذا الصنف وان كان قليلا الا انه يمثل جانبا يستحق الدراسة والاهتمام .

واليك نماذج قليلة تمثل الاصناف السابقة واحتمالاتها :

اولا : التغيير في الحروف المميزة بالنقط :

* عن ابي عمرو الشيباني قال : كنا بالرقة فانشد الاصمعي :

عنتا باطلا وظلما كما تعنز عن حجرة الربيض الظباء

فقلت له : انما هي (تعتر) من العتيرة. والعتر : الذبح ، فقال الاصمعي (تعنز) اي : تطعن بالعنزة ، وهي الحربة ، وجعل يصيح ويشغب ، فقلت : تكلم كلام النمل واصب ، والله لو نفخت في شبور يهودي، وصحت الى التناد ، ما نفعك شيء ، ولا كانت الا (تعتر) (1) .

* ومن الجاحظ قال : مررت بمعلم وهو يلقن صبيا :

يا ابا الفياش جشى
اخرج الفتيان غثا

لبش في الارض اياس
شرنوا املح مثا

فقلت : بالعبرانية هذا ؟ ! قال: لا ، هو بالعربية، فلما تاملته اذا هو مكتوب :

يا ابا العباس حبى
اخرج الفتيان عنا

ليس في الارض اناس
شربوا املح منا

فقلت : ايها المعلم ، انك ضائع بهذا البلد ، قال: نعم ، قذور ومرازيق (2) .

ففي النموذج الاول ترتب على تغيير نقط الحروف وجود كلمتين هما (تعتر) و (تعنز) تنازع حولهما الشيباني والاصمعي ، وكلاهما صحيح لغة ومعنى .

اما النموذج الثاني فان تغيير نقط حروف الكلمات فيه انتج كلمات لا معنى لها حتى ظنها الجاحظ كلاما « بالعبرانية » وقدم للمعلم بسببها النصح الساخر قائلا « ايها المعلم ، انك ضائع بهذا البلد .

ثانيا : التغيير في شكل الحروف :

* قال خلف الاحمر : انشد المفضل للمخبل :

واذا الم خيالها طرقت
عيني ، فماء شئونها سجم

فقلت : انما هو (طرفت) فلج ساعة ، ثم رجع عنه (3) .

* قال ابو احمد العسكري : ومما يقع فيه التصحيف حتى شك في ذلك بعض العلماء ، فجعل له تفسيرا آخر ــ روى ان النبي (ص) اتاه الملكان ، فشقا بطنه ، ثم قال احدهما (ايتني بالسكينة) فرواه بعضهم (ايتني بالسكينة) بكسر السين على انها مؤنث (سكين) وانما هي (السكينة) بفتح السين والكفاف غير المشددة .

قال : وقد فسره ابن الانباري على انه لغة في (السكين) واكثر اهل اللغة لا يعرفون ادخال الهاء فيها، وهذا ذهاب عن الصواب (4) .

ففي النموذج الاول غيرت (طرفت) الى (طرقت) فوجدت كلمة جديدة ، وكل منهما تختلف عن الاولى في الصيغة الصرفية ، علاوة على ما غير من النقط فيهما ، وكل منهما صحيحة من حيث الصيغة والمعنى.

اما الثاني فان التصحيف بتغيير الحركات انتج كلمة ليست من اللغة ، وحكم عليها العسكري بانها « ذهاب عن الصواب » .

---

(1) المزهر ج 2 ص 359 ــ شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص 93 مع اختلاف يسير .
(2) محاضرات الادباء ج 1 ص 63 .
(3) التنبيه على حدوث التصحيف ص 78 .
(4) تصحيف المحدثين ص 126 .

ثالثا : التغيير في الحروف غير المنقوطة :

* روى الاصمعي بيت « اوس بن حجر »

اجون تدارك ناقتي بقرالهـــا
واكبر ظني ان جونا سيفعـــل

قال ابن الاعرابي : صحف الدعي ، انما هـــو (تدارك ناقتي بقرابها) اي : ما دمت اطمع فيها (1).

* ورد في كتاب « دليل لغة العرب » الكلمات الآتية والتعليق عليها .

الماس ــ الماظ تحريف

ببغان ــ بغبغان تحريف (2)

وفي النموذج الاول واضح الفرق بين (قرى لها) و (قرابها) بسبب تغيير الباء باللام، واما الامثلة الاخيرة فالصورة الحادثة بالتحريف صورة خاطئة لغويا ، فالكلمتان حرفتا نتيجة تغيير السين ظاء في الاولى ، وتغيير الباء غينا في الثانية .

رابعا : ظواهر النحو في التصحيف :

* عن ابي عمرو قال : انشدت الفرزدق وبده في يدي لابن أحمر :

فاما زال ســـرح عن معـــــد
واجدر بالحوادث ان تكونـــا

فلا تصلى بمطـــروق اذا مـــا
سرى بالقوم اصبح مستكينـــا

فقال لي : ارشدك ام ادعك ؟ ! قلت : ترشدني ، قال : اذا كان ممن يسرى بالحى ، فليـــس بمطـــروق وانما هو (اذا سرى في الحى) فعلمت اني اخفلت ذالك، وان الامر كما قال .

وهذا من التحريف لا من التصحيف (3) .

فمن الواضح ان الخطا في الجملـة جـاء مـن استخدام حرف الجر (الباء) في الموضـع الـذي يقتضي فيه المقام حرف الجر (في) وهو خطا يعود الى المعاني التي ترد في النحو لاستخـدام حـروف الجر في مواطنها المناسبة ، وقد علق العسكري على ذلك بانه من التحريف لا من التصحيف ، ويبـدو ان هذا الفهم لما يشمله التحريف من بعض ظواهر النحو قد اتسع مداه فيما بعد حتى سوغ ذلك للصفدي في القرن الثامن الهجري ان يورد في كتابه « تصحيـح التصحيف وتحرير التحريف » ما يشمل مظاهر اللحن في النطق ، ولا يقتصر في ذلك على النطق المترتـب على الخطا في الكتابة .

واخيـــرا :

فان الذي سوغ لنا في البحث عـن الصـواب والخطا في اللغة ان نتعـرض لقضيـة « التصحيـف والتحريف » ــ مع انهما يرجعان اصلا لرسم الكلمـات وكتابتها ــ ما تبين مما سبق عرضه من الصلـة بين الكتابة والرواية الشفهية من ناحية ، وما ترتـب على الامرين معا من الخطا اللغـوي المنطـوق في معانـي الكلمات وبنيتها الصرفية ، وبعض الظواهر النحوية .

---

(1) التنبيه على حدوث التصحيف ص 74 .
(2) دليل لغة العرب ص 32 .
(3) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص 77 .

تعليق ونقد

عدل الفاسي

الأستاذ بجامعة القرويين وبجامعة محمد الخامس

ان هذا البحث طريف وقيم تناول فيه الدكتور محمد عيد قضايا اللحن ، والتصحيف والتوليد والتعريب في ضوء علم اللغة الحديث .

تحدث اولا عن معنى « اللحن » في الكلام العربي والتطور الذى حدث في استعماله وفي وسائل مقاومته ، فقد عرف اللحن اولا بمعنى الفطنة والذكاء وبالتظرف في الحديث ، حينما يخلط بالكلام الاجنبي او الكلام الذى يتعمد فيه الخطأ .

ثم اطلق اللحن على التورية وهو الذى عمل له ابن دريد كتابه الملاحن .

ثم استعمل اللحن في الخطأ في المعاني . وفيه لف الفاضل بن سلمه كتابه الفاخر « فيما تلحن فيه العامة » ..

كل هذه الاطلاقات استعملت في معنى اللحن، فصلها المؤلف واستدل لها ولكنه لم يذكر تاريخ التطور الذي تحدث عنه بالمعنى الدقيق للتاريخ .وعلى كل حال فالبحث يتناول بالذات اللحن بمعنى خروج الكلام الفصيح عن مجرى الصحة في بنية الكلام او تركيبه او اعرابه بفعل الاستعمال الذى يشيع اولا بين العامة ويتسرب بعد الى الخاصة .

ولا شك ان هذا اللحن امر طارىء على اللغة اذالمفروض في كلام العرب هو الصحة وما حاد عنه يعتبر خطأ .

ثم يتحدث المؤلف عن السمات التي يوصف من اجلها الكلام باللحن . ومنها الخطأ في الاعراب كنصب الفاعل ورفع المفعول . وكذلك وضع الكلمات في غير موضعها وخطأ المعاني كقولهم خرجنا نتنزه اذا خرجوا الى البساتين مع ان التنزه هو التباعد عن المياه والارياف ، ومنها استعمال الطرب في الفرح فقط والحشمة في الاستحياء .

وقد اوضح المؤلف سر اعتبار هذا لحنا ،وزعم انهم لم يراعوا تطور الدلالة في الكلمة ، مع ان الكلمات ليست احجارا جامدة .

ثم حاول تفسير الخطأ في احلال بعض الحروف محل بعضها كقولهم دخل في خمار الناس ، مع ان العرب تقول دخل في خمار الناس ـ بالخاء لا بالغين ـ بالتطور الصوتي . وبعد ان عدد عشرة امثلة تتعلق ببنية الكلمة قال : ان الحكم عليها بالخطأ جاء في ضوء القواعد الصرفية ، ثم اشار الى عناية العلماء بهذا النوع من الخطأ .

ثم ذكر امثلة عشرة ، لنماذج الخطأ في التركيب، لاعراب كقولهم شكرت لك ونصحت لك، والصواب شكرتك ونصحتك ، وبين ان الكثير منها يتعلق بتاليف التركيب العربي والامر الذي استقر عليه ، وهو من مباحث علم النحو . وقد اكد ان ايراد مثل هذه الاخطاء النحوية في دراسة (لحن العامة) ايراد لما حدث في اللغة الفصحى ، ويكون مقصورا على اوساط العلماء وان اطلقوا عليهم العامة ، بخلاف النماذج الاخرى فانها عمت مختلف الطبقات .

وقد اوضح صعوبة الوصول الى معرفة تاريخ بدء اللحن وتطوره في العصر الجاهلي ، وان انتقد النحاة بعض العبارات الجاهلية لمغايرتها للقواعد النحوية والصرفية الموضوعتين من بعد .

ولكن اللحن تردد عند العرب مع ظهور الاسلام على انه كان معروفا . وفي عهد الامويين اصبح اللحن ظاهرة خطرة في استعمال اللغة ، وترتب عنها نشاط علمي متنوع . جاء بامثلة منه كالرحلة للبادية وتاليف الكسائي كتابه الذي لا يزال موجودا بين يدينا (ما يلحن فيه العامة) .. واستمرت موجة اللحن قوية مندفعة ، فالقرن الثالث اقل فصاحة من القرن الثاني واكثر لحنا . وفي القرن الرابع وصل اللحن الى مداه .

فماذا كان موقف علماء اللغة من هذه الظاهرة ؟

نظر العلماء الى هذه الظاهرة من جهة الخطأ ، فقاوموه بعنف ، وبدات مقاومتهم منذ القرن الثاني ، وهنا جاء بقائمة لاسماء العلماء الذين كتبوا في تقويم اللحن ، تصل حد الثلاثين كتابا .

ثم لاحظ ان هذه المقاومة كانت في القرون الثلاثة الاولى قوية ثم ضعفت بعد .

وقد اعتمد اللاحقون على جهود السابقين ، دون ان يحاولوا استشهادات جديدة وسماعات من العرب غالبا .

وتصدوا غالبا بالعامة الناس العاديين بدليل قولهم الخواص او الخاصة . وجهودهم كلها تنصرف الى تنقية اللغة الفصحى .

لا وجود في هذه الكتب لحديث عن اللحن فكرة وموضوعا .

ثم يتساءل هل نجحت هذه الجهود التي قام بها اولئك العلماء ؟

وفي فصل خاص يحلل هذا الموضوع ارادة الجواب عن السؤال ، ويقول ان تحديد نظرة النحاة الى اللحن امر يسير ، لانهم نظروا اليه من زاوية الخطأ واعتبروه انحرافا ولم ياخذوا في الاعتبار قوة الاستعمال وقهره والتطور الذي يمكن ترتبه على ذلك . مع ان لحن النحويين انفسهم في الاستعمال دلالة على خطورة الاستعمال . والخلاصة انه يؤكد في النهاية ان ما اطلق عليه النحاة منظور اليه من زاوية الخطأ ، وقبل ان يبين مدى نجاحهم فيما قصدوا اليه ، جاء بفصل في :

معنى التصحيف والتحريف وعلاقتهما باختلاف المعنى والبنية والاعراب، وانتهى الى القول بان مجال البحث في الكلمتين واحد ، وهو البحث عن الخطأ الذي يحدث في نطق الكلمة العربية نتيجة الخطأ الاملائي .

ولم تستعمل الكلمتان دائما في مكان واحد ، بل في معان لها صلة بالخطأ ، من جهة :

1 ـ من جهة التحديد النظري لمعنى التصحيف والتحريف .
2 ـ سبب وقوع ذلك في الكتابة العربية خاصة .
3 ـ علاقة مظاهر الخطأ التي ترتبت على ذلك.

وقد فصل هذه الجهات الثلاث وارجع السبب في ذلك الى الخط العربي الذي لم يكن منقوطا ولا مشكولا . ثم ميزت حروفه بنقط وحركات منفصلة وتابعة للحروف العربية ، ويسال كذلك عن هذه

المسألة علماء اللغة الذين يعطون لانفسهم حرية روايةالكلمة كما فهموها من السياق .

فالمسؤول اذن الرسم العربي ، والنساخ ووهمالعلماء .

وبعد ان اتى بنماذج تمثل الاسباب السابقة ،عقد فصلا لمقاومة التصحيف والتحريف بأسلوب الرواية وتنقية الاخطاء فذكر تطور ذلك على ما يأتي :

1 ـ ضبط الكتابة العربية بالنقط والشكل .

2 ـ ضرورة المشافهة فى رواية اللغة .

3 ـ تنقية الاخطاء بجمعها فى مؤلفات .

وقد جاء بانتقادات للعلماء على هذه الاساليبالثلاثة وعدم كفايتها لوقاية اللغة من التصحيف والتحريف .

ولاحظ ان هذا الجانب الذى هو تنقية اللغةبجمع ما صحف وحرف فى مؤلفات جانب دراسي بدأ فى القرن الرابع الهجري. كتب فيه المؤلفون الذين لميكتفوا بنماذج التصحيف بل اضافوا الى ذلك تناول قضية التصحيف والتحريف من حيث نشأتهاوعواملها .

ثم تساءل : اكان هذا المجهود حلا للقضية ؟

وقبل الجواب عن ذلك عقد فصلا :

لمعنى التوليد فى الالفاظ ومصادره اللغوية .

1 ـ ثم جاء بعرض تاريخي للمولد من حيث استعمال اللفظ ودراسة العلماء لظاهره .

2 ـ وبالتحديد النظري لمعنى التوليد كما رواهالاقدمون .

3 ـ وتحدث عن مصادر التوليد فى الالفاظ ودراسة العلماء لنماذجه .

وبعد ان فصل هذه الموضوعات تساءل ايضا عن:

مدى توفيق العلماء فى مباحث التوليد ؟

وقبل الجواب عنه ايضا انتقل الى بحث عن :

حركة التعريب وتطورها استعمالا ودراسة .

وطبعا فانه يعني بالتعريب معناه الاصيل الذىهو ادخال كلمة اعجمية فى الكلام العربي وتبنيها ، لا بالمعنى الحديث الذى نستعمله حينما نطالب بتعريبالتعليم والادارة مثلا .

وقد بين فى هذه الفقرة :

1 ـ الصورة العلمية لحركة التعريب فى الكلامالعربي فى عصر الاستشهاد

2 ـ الصورة العلمية لدراسة المعرب فى الكلامالعربي بعد عصر الاستشهاد .

وقد اجاد فى بحث الموضوعين وما تفرع عنهماكوجود الدخيل فى القرآن ، وجاء بقائمة المؤلفات المهمة فى موضوع التعريب .

ولاحظ ان التأليف فى هذه الظاهرة تاخرنسبيا .

وضمنت فكرة التمهيد لذكر الكلمات المعربةبمقدمة علمية تتناول الافكار الخاصة بهذه الظاهرة .

3 ـ كلمة الدخيل جعلت عنوانا لبعض الكتبفى موضوع التعريب .

4 ـ من المؤلفات كتب فى التعريب وضعت اخيرا الامر الذى يدل على انه لا يريد تناول التعريب فى القديم فقط .

ـ اما الجانب اللغوي فقد عرض فيه نظر الاقدمين للمعرب وجهودهم فى اخضاعه لمسلك الصيغ العربية .

وقد فصل القول فى هذا الجانب واتى بتدقيقات مهمة .

ثم تساءل ماذا يستنتج من موقف علمائنا الاقدمين ازاء النقل من اللغات الاجنبية ؟

يتلخص ذلك فى امرين :

1 ـ قصر المعرب على العرب وحدهم الذين عاشوا فى فترة زمنية خاصة .

2 ـ فرض قواعد الصيغ العربية على استعمال المعرب من لغات متعددة .

ولتقييم ذلك احال المؤلف على القسم الاخير الذى يجيب فيه عن الاسئلة المتقدمة .

وفي هذا القسم تناول راي علم اللغة الحديث عن :

1 ـ اللحن بين تحكم القواعد وتطور الاستعمال

2 ـ التصحيف والتحريف من مظاهر الرسم العربي .

3 ـ الالفاظ المولدة فى ضوء تطور اللغة .

4 ـ التعريب بين قيود النحاة وحاجة الاستعمال .

وقد فصل آراء العلماء اللغويين المعاصرين فى هذه النقط وبين ميزة التسامح التى ظهروا بها ازاء المسألة الاولى ، وادلى بآراء اللسنيين عرب واعاجم ودعا الى :

1 ـ تنحية الفكرة القديمة عن المجموعة المدونة فيما تلحن فيه العوام واعتبارها تطورا يهدينا الى دراستها فى مراحل استعمالها

2 ـ النظر فى هذه المادة ودراستها مع غيرها من النصوص الموثقة فى عصرها ليعلم مدى انتشارها فى الاستعمال فيقبل منها ما تحقق له ذلك . وتناول بعد ذلك امر التصحيف والتحريف وابدى اعجابه بجهود العلماء فيها وقال : ان العلماء بعد ان عرفوا الضعف الموجود فى الرسم العربي لم يحاولوا تغييره ، وقال ان الرسم العربي شان غيره فى اللغات الاخرى قد يشتمل على عيوب ، وهذه العيوب ينبغي احتمالها والرضا عنها ارتكابا لاخف الضررين ، واستدل على ذلك بنص للعالم اللسني فندريس .

اما من المولد فقد اعتبر ان الالفاظ المولدة مظهر لتطور اللغة .

وان موقف النحاة من هذه الالفاظ قد تحكمت فيه اعتبارات اعترفوا بها ثم استسلموا لها ، وينتقد عليهم خروجهم عن واجب الاستقراء الى الحكم بالاباحة او المنع على الالفاظ واعتبر ان الحق المعطى لبعض الناس فى ظروف معينة ينبغي ان يعمم على كل جماعة وكل عصر فيقبل ما ولدوه من كلمات دعت اليها حاجة اللغة وهدت اليها سليقتها .

ثم انتهى باستخلاص نظرة المحدثين للعوامل الطارئة على اللغة .

1 ـ اعتبار التطور فى اللغة من اسس النظرية الحديثة للمستوى اللغوي ، وتفسير هذا التطور حسب راي ـ فيرس ـ التغيير المستمر بين عناصر اللغة .

2 ـ لا تتطابق الكتابة لاية لغة مع نطق هذه اللغة فنحن ، كما يقول فندريس ، لا نكتب كما نتكلم بل نكتب كما يكتب غيرنا .

3 ـ ان تغير الظروف الاجتماعية ينعكس تاثيره على الالفاظ من حيث اختفاء بعضها واندثاره وحدوث الاضر واستعماله .

4 ـ نقل الالفاظ من اللغات الاجنبية يخضع للحاجات الاجتماعية المتجددة للناطقين انفسهم ، وهذا امر عادي لا خطر فيه .

اعتبر ان هذا الكتاب يكون بحثا قيما خاضعا لمناهج البحث اللغوي الحديثة متسلسلا في افكاره وموضوعاته وفي الاستنتاجات المترتبة عليها ، وانه استقرا باختصار مباحث الاقدمين عن العوامل الطارئة على اللغة بكيفية لم يسبق جمعها في كتاب حديث ، ثم اعاد تقييمها على ضوء آراء علماء اللسنيات ، ومباحث العرب التي شغلت اوقات المجامع العربية ازيد من نصف قرن ، ولم يتقدم المؤلف باقتراحات تلقائية في تجديد اللغة خارجة عما ورد على السنة الباحثين المجمعين في الشرق العربي . ويظهر ان المؤلف لم يطلع على بعض البحوث التي قام بها المغاربة المختصون لاسيما في اصلاح الرسم العربي الذي وضعه الاستاذ الاخضر والذي يسعدني ان اقول مرة اخرى انه يصلح من عيوب الرسم العربي الشيء الكثير ، كما انه فيما يظهر لم يطلع على جهود مكتب التعريب المغربي ومحاولته لاحصاء كلمات الحضارة واستقرائها والاكتفاء بما هو موجود منها في كتب اللغة او في المجتمعات العربية عن اتخاذ الدخيل الذي ينزع اليه عند عدم وجود الاصيل .

والكتاب بهذه الصفة جيد وجدير لقبوله من اللجنة المحترمة واجازته ، وبالمقارنة مع المباحث الاخرى وآراء المقررين فيها يقع التفاضل ويتم الترجيح ، وان كنت اوصي بكل اخلاص بمجازاة هذا المؤلف على جهده المشرف وطبع رسالته .

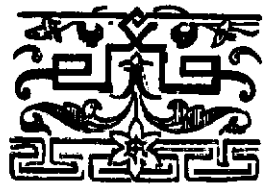

الأضداد في اللغة

الأستاذ حسنين محمد (القاهرة)

ونحن ننشر في هذا العدد من مجلتنا القسم الاول من البحث «حول الاختلاف في مفهوم الاضداد» مرجئين الى العدد المقبل بحول الله القسم الثاني حول «جمع الاضداد وتدوينها» :

لا يماري انسان اتصل بالعرب او ادبهم او ثقافتهم ادنى اتصال انهم يرتبطون بلغتهم ارتباطا قل ان نرى مثيلا له في الامم الاخرى ، وان هذا الارتباط جعلهم يلتزمون بها ، ويشعرون بكل تغيير — مهما كانت تفاهته — يجري عليها ، ويحاولون المحافظة عليها ما وسعتهم المحاولة ..

وكانت الثمرة على النحو واللغة . فقد اخذ العرب يتحدثون في شيء من مسائلهما منذ وقت مبكر ، لسنا على يقين منه ، بل ربما رجع الى ما قبل الاسلام ، كما تنبيء بعض اخبارهم . ولست اريد ان اضرب في وادي الاوهام ، او اركن الى الظنون . فما اتحدث عنه في هذا الكتاب غني عن ذلك ..

فلا جدال ان علماء بالعربية اخذوا يظهرون في المجتمع، ويحملون هذه الصفة ، في القرن الثاني ، بل ربما لا اغالي اذا قلت اواخر القرن الاول . ولم يزد جهد الاولين من هؤلاء «العلماء بالعربية» على مدارسة تلاميذهم ، ومناقشتهم . ثم جاء خلف لم يرضوا بهذا الجهد وحده ، وطمحوا الى «التدوين» : تدوين ما قال شيوخهم ، وما وصل اليه جهدهم الخاص ..

وكانت الثمرة — في المجال اللغوي الخاص — رسائل تحاول ان تجمع الفاظا لغوية ذات طابع خاص، ولا يهم ان يكون ذلك الطابع من معناها ، كأن تكون هذه الالفاظ جميعا تتحدث من الابل وما تعلق بها ، فتعطينا الرسائل اللغوية على الموضوعات . او يكون ذلك الطابع من المصدر الذي وردت فيه ولفت الانظار ، كأن تكون في القرءان او الحديث ، فتعطينا رسائل غريب القرءان ، وغريب الحديث . او يكون ذلك الطابع من ظاهرة لغوية تغلب عليها كأن تكون هذه الالفاظ مهموزة ..

ومن الضرب الاخير « الفاظ الاضداد » . فقد كان الذي لفت الانظار اليها ما تتحلى به من ميزة خاصة ، اذ ترد بصورة واحدة ، ولكنها تدل على معان يتقابل منها اثنان تقابلا تاما ..

ولم يكن تدوين الاضداد فيما نعرف من الرسائل اللغوية الاولى ، ولكنه تأخر عنها قليلا . وفي القرن الثاني تنبه اللغويون اليها ، فشرعوا يلتقطونها ، ويشيرون اليها ، ويتحدثون عنها .

وكانت الثمرة الطبيعة اول تدوين للاضداد في اللغة العربية . وكانت هذه الثمرة الاولى باكورة عدة ثمار : جمعت الاضداد او درستها . وحول هذا الثمار ندور في الصفحات الآتية : متأملين، ومتذوقين، ومقدرين ..

ودعائي الى الله ان يمنحني القصد فلا أجور ، والقدرة فلا أعجز ..

تعريف الاضداد

ان من اقدم الامور التى تطلع اليها علماء اللغة العربية الاولون التفرقة بين الانواع التى يمكن ان تنقسم اليها الكلمة . فالقدماء يكادون يجمعون ان علي بن ابي طالب اول من تحدث فى قضايا نحوية ، ويذهب بعضهم انه اكتشف ان «الكلام كله اسم وفعل وحرف ..» (1) .

ولست فى صدد دعم هذا الكلام او دحضه ، انما يهمني ان القدماء كان فى خلدهم ان تقسيم الكلام العربي كان اول قضية نحوية . واذن فغير غريب ان يكون من اقدم القضايا اللغوية تقسيمات اخرى تكميلية ..

.اقدم ما يعنيني من هذه التقسيمات ما أورده سيبويه فى صدر كتابه ، دون ان يبين انقله عن احد شيوخه أم كان من ابتكاره . والتقسيم الذي اورده ثلاثي ايضا يمكن ان اضعه على النحو التالي . قال (2) :

ان من كلامهم :

أ ـ اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين ... نحو جلس وذهب .

ب ـ اختلاف اللفظين والمعنى واحد ... نحو ذهب وانطلق .

ج ـ اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ... نحو : وجدت عليه : من الموجدة ، ووجدت : اذا اردت وجدان الضالة ..».

.. بالنوع الثاني ما سماه اللغويون (الاضداد) والنوع الثالث ما سموه المشترك ..

ما دونه سيبويه « كتاب » النحاة رجعوا اليه وافادوا منه : وكان كان طبيعيا ان نجد هذا التقسيم (3) . وكان طبيعيا بل اوغل فى هذا القول ـ ان نجد هذا التقسيم فى صدر كتابه الذى الفه فى الاضداد ، ولم يزد عليه غير شيء من البسط والشرح والتمثيل والتفريع . قال ابو علي قطرب : « الكلام فى الفاظه بلغة العرب على ثلاثة اوجه :

1 ـ فوجه منها ـ وهو الاعم الاكثر ـ اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين ، وذلك للحاجة منهم الى ذلك . وذلك قولك : الرجل ، والمراة ، واليوم ، والليلة ، وقام ، وقعد ، وجاء ، وذهب . اختلف اللفظان لاختلاف المعنيين . وهذا لا سبيل الى جمعه وحصره ، لان اكثر الكلام عليه ». وقد نشعر من هذه العبارة الاخيرة ان قطربا لم يسمع بمحاولة الخليل بن احمد الفراهيدي جمع اللغة فى كتاب العين ، والحق ان القدماء يقولون ان كتاب العين لم يرد الى البصرة من خراسان الا فى زمن متاخر من وفاة قطرب ..

2 ـ والوجه الثاني اختلاف اللفظين والمعنى متفق واحد . وذلك مثل عير وحمار ، وذئب وسيد، وسمسم وثعلب ، واتى وجاء ، وجلس وقعد . اللفظان مختلفان والمعنى واحد .. وكانهم انما ارادوا باختلاف اللفظين ، وان كان واحد مجزئا ، ان يوسعوا فى كلامهم والفاظهم ، كما زاحفوا فى اشعارهم ليتوسعوا فى ابنيتها ، ولا يلزموا امرا واحدا ..

3 ـ والوجه الثالث ان يتفق اللفظ ويختلف المعنى ، فيكون اللفظ الواحد على معنيين فصاعدا . وذلك مثل الامة يريد الدين ، وقول الله : « ان ابراهيم كان امة قانتا لله » منه .. والامة : القامة ، قامة الرجل . والامة من الامم .

ومن هذا اللفظ الواحد الذى يجيء على معنيين فصاعدا ما يكون متضادا فى الشيء وضده » . وعلى هذه الصورة وصل قطرب الى غرضه ، اذ ابان ان هذا المشترك من الكلمات ـ الذى ذكره سيبويه ـ نستطيع ان نجد تحته فئتين من الكلمات : فئة تختلف معانيها مثل الامة ، واخرى يزداد التخالف الى ان تتضاد ، وهي « الاضداد » التى الف من اجلها الكتاب ..

زهره الالباء 2 .

لاحمد بن فارس 96 ، 201 ، والمزهر للسيوطي 1 : 388 ـ 9 .

وانتقل هذا التقسيم من كتاب قطرب الى كتاب آخر في الاضداد ، هو الذي الفه ابو بكر بن الانباري (4) . فقد اورده هذا برمته في مقدمته ، واضاف اليه بعض التوضيح والاعتراض . فقد روى ان ابن الاعرابي اعترض على المترادفات ، وانكرها ، واعلن ان كل كلمة منها لها معنى ليس في اختها ، احيانا نعرفه واحيانا لا نعرفه . وارتضى ابن الانباري راي ابن الاعرابي ودعمه بالحجج التي تؤيده . وصرح ابن الانباري ان الوجهين الاولين من الكلام ، اكثر كلامهم » ، اما الاضداد فاتفق هو وقطرب على قلتها ..

واذا نظرنا الى حديث قطرب السابق عن الاضداد وجدناه موجزا ومبهما ، لا يعطينا تعريفا شاملا دقيقا لها . وقد حافظت الكتب بعد قطرب على هذا الابهام . فاكتفى ابو حاتم السجستاني بأن قال في مقدمة كتابه : « ضد الشيء : خلافه وغيره » . وقال ان الانباري في وصف كتابه (5) : « هذا كتاب ذكر الحروف التي توقعها العرب على المعاني المتضادة فيكون الحرف منها مؤديا عن معنيين مختلفين » .

وكان ابو الطيب اللغوي هو الذي ازال كل ابهام عن اللفظ ، حين عرفه في صدر كتابه فقال (6) : « الاضداد جمع ضد . وضد كل شيء ما نافاه ، نحو البياض والسواد ، والسخاء والبخل .. وليس كل ما خالف الشيء ضدا له . الا ترى ان القوة والجهل مختلفان ، وليسا ضدين ، وانما ضد القوة الضعف ، وضد الجهل العلم . فالاختلاف اعم من التضاد ، اذ كان كل متضادين مختلفين ، وليس كل مختلفين ضدين » .

الاختلاف في وجود الاضداد

وقد اختلف موقف اللغويين القدماء من هذا النوع من الالفاظ . فارتضى جماعة منهم وجودها ، واعترف بها ، وتحدث عما يندرج تحتها من الفاظ ، وعللها احيانا . وكانت هذه الجماعة اسبق في الظهور من معارضتها ، اذ كان منها ابو عمرو بن العلاء والخليل ابن احمد ويونس بن حبيب وتلاميذهم . واستمر المنتسبون اليها في البقاء الى يومنا هذا . اما الجماعة الاخرى فاعترضت على الاضداد ، وانكرتها . ولا نعرف من انتمى اليها من القدماء غير عبد الله بن جعفر المعروف بابن درستويه (7) . وكثر اتباعها في العصر الحديث . فكان منهم عبد الفتاح بدوي كاتب مقالة « ضدان » في دائرة المعارف الاسلامية (مادة اضداد) وكان منهم اغلب المستشرقين ، الذين كتبوا المقالات والرسائل الصغيرة في رفض الاضداد ..

وبسبب هذا الاختلاف ، اضطر مؤيدو الاضداد الى الدفاع عن وجودها ، والرد على ما قاله المعارضون . ولعل اهم من قام بهذا العمل احمد بن فارس ، وابن سيده ، ومحمد ابن القاسم الانباري. اما الاولان فقد وجدت عندهما الدفاع . واقامه ابن سيده على الجدل العقلي ، فقال لشيخ منكر للاضداد (8) : « هل يجوز عندك ان تجيء لفظتان في

---

(4) 6 – 8 .
(5) 1 .
(6) 1 .
(7) ذكر الجواليقي في شرح ادب الكاتب ان ثعلبا انكر الاضداد ، وقال : « ليس في كلام العرب ضد .. لانه لو كان فيه ضد لكان الكلام محالا، لانه لا يكون الابيض اسود ولا الاسود ابيض . وكلام العرب – وان اختلف اللفظ – فالمعنى يرجع الى اصل واحد » (ادب الكاتب 177)
والغريب ان تلميذه ابن الانباري لم يذكر ذلك ، بل اكثر من الرواية في كتابه عنه الى درجة تجعل المرء يوقن ان ثعلبا من القائلين بالاضداد . وروى عنه ما يدل على ان ثعلبا اعلن ان اللفظ قد يفيد مقابل معناه ، لعلة من العلل . قال : « قال ابو العباس (ثعلب) : انما جاز ان يقع الظن على الشك واليقين ، لانه قول بالقلب . فاذا صحت دلائل الحق ، وقامت اماراته كان يقينا . واذا قامت دلائل الشك ، وبطلت دلائل اليقين ، كان كذبا . واذا اعتدلت دلائل اليقين والشك كان على بابه شكا ، لا يقينا ولا كذبا » (الاضداد 16) .
(8) المخصص 13 : 259 .

اللغة متفقتان لمعنيين مختلفين ! (يشير الى المشترك) فلا يخلو في ذلك ان يجوزه او يمنعه . فان منعه ورده ، صار الى رد ما يعلم وجوده وقبول العلماء له ، ومنع ما ثبت جوازه ، وشبهت عليه الالفاظ ، فانها اكثر من تحصى وتحصر ، نحو « وجدت » الذى يراد به العلم ، والوجدان ، والغضب ، و «جلست» الذى هو خلاف قمت ، و «جلست» الذى هو بمعنى اتيت نجدا (وتسمى جلس) . فاذا لم يكن سبيل الى المنع من هذا ، ثبت جواز اللفظة الواحدة للشيء وخلافه . واذا جاز وقوع اللفظة للشيء وخلافه ، جاز وقوعها للشيء وضده ، اذا لضد ضرب من الخلاف ، وان لم يكن كل خلاف ضدا » ..

ولم يلجأ ابن فارس الى المنطق، والجدل العقلي، فى دفاعه عن الاضداد . وانما اعتمد فى احد رأييه على طبيعة اللغة العربية . فقال (9) : « ومن سنن العرب فى الاسماء ان يسموا المتضادين باسم واحد، نحو الجون للاسود ، والجون للابيض » . فالاضداد عنده واحدة من ظواهر اللغة العربية مثل الترادف . واعتمد فى رأيه الثاني على الرواة الذين نقلوا لنا الاضداد وموقفنا منهم . فقال يصف رأي المعارضين (10) : هذا ليس بشيء ، وذلك ان الذين رووا ان العرب تسمي السيف «مهندا» والفرس «طرفا» هم الذين رووا ان العرب تسمي المتضادين باسم واحد » فابن فارس يوجب ان نوحد موقفنا من هؤلاء الرواة . فان شككنا فيما رووا من الاضداد وجب علينا ان نشك فى بقية رواياتهم اللغوية ، وذلك أمر مستحيل . فان وثقنا بما رووا من غير الاضداد، كان واجبا ان نثق بما اوردوه منها . والحق ان ابن فارس كان اكثر توفيقا فى دفاعه عن الاضداد ، واقرب الى طبيعة اللغة وما تفرضه من مناهج . ويؤسفنا الا نعثر على كتابه الذى الفه فى الدفاع عن الاضداد ، ووصف موقفه من مذهب المعارضين ، فى قوله (11): « وقد جردنا فى هذا كتابا ، ذكرنا فيه ما احتجوا به، وذكرنا رد ذلك ونقضه » .

واما ابن الانباري فقد تناول واحدا من اهم اراء المنكرين للاضداد ورد عليه . بل لعله اهم راي لهم ، اذ صدر عن راسهم ابن درستويه ، واستغلته جماعات متنوعة .

ولما كانت كتب المعارضين القدماء لم تصل الينا، كنا مضطرين الى الاعتماد على حكايات غيرهم عنهم ، وما تساقط الينا من اقوالهم ، فى تصور ارائهم . وتؤكد لنا هذه الحكايات ان المعارضين رفضوا الاضداد جملة ، وانكروا وجودها فى اللغة . قال احمد ابن فارس (12) : « وانكر ناس هذا المذهب وان العرب تاتي باسم واحد لشيء وضده » . وقال السيوطي مصورا لموقف ابن درستويه ، الذى يعد راس المعارضين القدماء (13) : « قال ابن درستويه فى شرح الفصيح : النوء : الارتفاع بمشقة وثقل ، ومنه قيل للكوكب : قد ناء : اذا طلع . وزعم قوم من اللغويين ان النوء السقوط ايضا ، وانه من الاضداد. وقد اوضحنا الحجة عليهم فى ذلك فى كتابنا فى ابطال الاضداد ! فاستغدنا من هذا ان ابن درستويه ممن ذهب الى انكار الاضداد، وان له فى ذلك تاليفا ».

وعندما نتتبع الاقوال التى اتى بها المنكرون لدعم رايهم لا نجد فيما بين يدينا من مراجع غير اقوال قليلة لا تدل على حقيقة موقفهم دلالة كافية . واهمها الراي الذى رد عليه ابن الانباري ، وجاء ابن درستويه فى شرح الفصيح حين قال (14) : « انما اللغة موضوعة للابانة عن المعاني . فلو جاز وضع لفظ واحد للدلالة على معنيين مختلفين ، او احدهما ضد للاخر لما كان ذلك ابانة بل تعمية وتغطية ..» .

وتثقف هذا القول من ابن درستويه فئتان من الناس . ابدا بالفئة المتاخرة فى الوجود ، اذ عاشت بيننا فى العصر الحديث ، وتقبلت القول فى نية حسنة ، ودافعت عنه فيمواجهة بعض ما وجه اليه

---

(9) الصاحبي 97 .
(10) الصاحبي 98 .
(11) الصاحبي 98 .
(12) الصاحبي 98 . المزهر 1 : 387 .
(13) المزهر 1 : 396 .
(14) المزهر 1 : 385 . اصداد ابن الدهان 5 .

من نقد على العصور . قال عبد الفتاح بدوي (15) : « ينبغي الا يعزب عنا ان التضاد مناف لطبيعة اللغة، وانه لا يسهل التفاهم بين الناس . فمن الصعب ان نقبل ان المعاني الاولية المتضادة يتفاهم الناس عنها بلفظ واحد . والصعوبة التي تنشأ من التضاد اكبر جدا من التي تنشأ من الاشتراك . واذا قيل : ان القرائن توضح المراد كان هذا تسليما حقا بمنافاة التضاد لطبيعة اللغة ، لان الاعتماد على القرائن ليس من طبيعة اللغات في سداجتها . وانما هو طور آخر فوق ذلك » ..

اما الفئة الاولى في الوجود فكانت مريبة . ولم تقبل القول الا لتستند اليه في الطعن على العرب ، اذ سلمت بصحة القول وصحة وجود الاضداد في «ان واحد ، واقامت عليهما من الاحكام ما يتسق مع مآربها الحاقدة . قال ابن الانباري (16) : ويظن اهل البدع والزيغ والازراء بالعرب ان ذلك كان منهم لنقصان حكمتهم ، وقلة بلافتهم ، وكثرة الالتباس في محاوراتهم ، وعند اتصال مخاطباتهم . فيسالون عن ذلك ، ويحتجون بأن الاسم منبيء عن المعنى الذي تحته ودال عليه ، وموضع تأويله . فاذا اعتور اللفظة الواحدة معنيان مختلفان لم يعرف المخاطب ايهما اراد المخاطب ، وبطل بذلك معنى تعليق الاسم على المسمى »

وكان رد ابن الانباري على هذه الفئة الشعوبية بقوله (17) : « احدهن ان كلام العرب يصحح بعضه بعضا ويرتبط اوله بآخره ، ولا يعرف معنى الخطاب منه الا باستيفائه ، واستكمال جميع حروفه . فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين لانها يتقدمها ويأتي بعدها ما يدل على خصوصية احد المعنيين دون الاخر ولا يراد بها في حال التكلم والاخبار الا معنى واحد .. ومجرى حروف الاضداد مجرى الحروف التي تقع على المعاني المختلفة وان لم تكن متضادة ، فلا يعرف المعنى المقصود منها الا بما يتقدم الحرف ويتاخر بعده مما يوضح تأويله .»

وتساقط الينا من اقوال منكري الاضداد ما يكشف عن ادلة اخرى لهم . ولكن هذه الاقوال لا تحاول ان تهدف القاعدة التي قامت عليها الاضداد كما استهدف قول ابن درستويه السالف ، بل تسير في اتجاه مخالف بعض المخالفة ، يجعلنا نستطيع ان نعتمد عليها ونستفيد منها في موضع آخر . ولذلك نرجيء عرضها والحديث عنها الى ذلك الموضع ، ونقفز الى المحدثين من الشرقيين والمستشرقين .

فيبرز امامنا عبد الفتاح بدوي اكثر الرافضين للاضداد تطرفا وتوسعا في رأيه ، اذ انكرها انكارا باتا ، واعلن : « واننا لنتحدى الذين يزعمون ان في اللغة اضدادا ونباهلهم، بجميع كلمات اللغة العربية، ان يأتونا بلفظ واحد له معنيان متقابلان بوضع واحد. فان لم يفعلوا ولن يفعلوا ــ فليس في اللغة تضاد » . وقد اتخذ عبد الفتاح بدوي من قول ابن درستويه اساسا ثم اقام عليه علته في هذا النفي المطلق للاضداد . قال : « ينبغي الا يعزب عنا ان التضاد مناف لطبيعة اللغة ، وانه لا يسهل التفاهم بين الناس . فمن الصعب ان نقبل ان المعاني الاولية المضادة يتفاهم الناس عنها بلفظ واحد . والصعوبة التي تنشأ من التضاد اكبر جدا من التي تنشأ من الاشتراك » . ورد على ابن الانباري قائلا : « واذا قيل : ان القرائن توضح المراد ، كان هذا تسليما حقا بمنافاة التضاد لطبيعة اللغة ، لان الاعتماد على القرائن ليس من طبيعة اللغات في سداجتها ، وانما هو طور آخر فوق » . ثم قسم عبد الفتاح بدوي الاضداد الى طوائف ، واتبع كل واحدة بما يبطلها في نظره. واعلن ان امثالها موجود في اللغات المختلفة ، واتى بشواهد من اللغة الفرنسية .

وقد اجملت دائرة المعارف الاسلامية والدكتور منصور فهمي الادلة التي اعتمد عليها المستشرقون في انكار الاضداد ، فكانت كما يلي :

1 ــ كانت معظم الكلمات التي اوردها مؤلفو الاضداد معروفة عند العرب بمعنى واحد فقط .

اما المعنى الآخر المضاد له فلم يرد الا في روايات نادرة ، بل روايات جديرة بالشك . ولا ريب ان بعض الالفاظ التي اوردتها كتب الاضداد من هذا القبيل ، مثل ذلك ما

---

(15) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة اضداد .
(16) الاضداد 1 .
(17) الاضداد 3 .

ما رواه ابو زيد (18) : « تصدق الرجل : اذا اعطى صدقته. وبعض العرب يقول: تصدق: سال، والجيد: تصدق : اعطى » . ولكن يجب الا يغيب عن بالنا ان القدماء انفسهم ــ وجامعي الاضداد ــ هم الذين نقدوا مثل هذا اللفظ ، وابانوا الرديء والجيد منه ، كما نرى في النص السابق ، ومقابله عند ابن الانباري (19) : « يقال : قد تصدق الرجل : اذا اعطى ، وهو المعروف المشهور عند اكثر العرب ، وقد تصدق : اذا سال وهو القليل في كلامهم » وعند ابي الطيب (20) : «قال ابو حاتم : والمعروف عند العرب تصدق : اذا اعطى الصدقة » . وامثال هذا النقد كثيرة عند ابي حاتم وابن الانباري وابي الطيب خاصة . .

2 ــ يعوز اكثر ما ذكروا من الاضداد الشواهد الموثوق بها ، حتى قال جيز Giese انه لم يعثر في الشعر القديم الا على 22 لفظا من الاضداد. وذهب هرشفلد الى ابعد من ذلك . فعقب على قول جيز معلنا (21) أن هذا العدد يمكن ان نقلل منه لو ازدادت معرفتنا بالمعاني الاصلية لهذه الالفاظ . وكان ابن الانباري هو الذي لفت المستشرقين الى الشك في الاضداد التي لا يوجد شواهد عليها ، اذ فعل ذلك في الحميم قال (22) : « قال بعض الناس: الحميم من الاضداد، يقال الحميم للحار ، والحميم للبارد. ولم يذكر لذلك شاهدا ، والاشهر في الحميم الحار . . » . واعلن ان الشاهد هو الدليل على صحة التضاد حين قال (23) : « قال بعض اهل اللغة : الضد يقع على معنيين متضادين ، ومجراه مجرى الند . يقال فلان ضدي : اي خلافي ، وهو ضدي : اي مثلي . قال ابو بكر (ابن الانباري) : وهذا عندي قول شاذ لا يعول عليه ، لان المعروف من كلام العرب: العقل ضد الحمق ، والايمان ضد الكفر . والذي ادعى من موافقة الضد للمثل لم يقم عليه دليلا تصح به حجته » .

ولكن الحق ان القدماء اوردوا كثيرا من هذه الالفاظ ، او كثيرا من المعاني المتضادة ، مهملة . فلم يوردوا لها شواهد البتة ، او اوردوا منها ما يشهد للمعنى المعروف وتركوا المعنى غير الشائع بدون شواهد . مثال ذلك دهور، وزجور، ونهوز، وبحتر، في اضداد قطرب (24) ، وعنه روته بقية كتب الاضداد دون ان تكترث لاضافة الشواهد (25) . والامر نفسه نجده في اضداد الاصمعي (26) ، وابي حاتم (27) ، وابن السكيت (28) ، وغيرهم . ولكننا يجب ان نحترس هنا ايضا ، فان القدماء لم يكونوا يشعرون بوجوب ايراد الشواهد على كل ما يسمعون ويروون ، وخاصة اذا كان اللفظ قد سمعوه في غير شعر . بل انهم تخففوا في بعض الاحيان من بعض الشواهد التي كانت بين ايديهم ، كما فعل ابو حاتم عندما حذف بعض شواهد الاصمعي من امثال شوهاء ومعبد ومغلب .

3 ــ لا يجوز الاعتماد في اثبات التضاد على موضع اللفظ من الكلم دون الاعتماد على الاصل اللغوي لهذا اللفظ . والمراد بهذا النظر الى معنى اللفظ في حال افراده عندما يركب في جملة ، لان السياق قد يكسبه معنى جديدا ، هو الذي يخرجه الى التضاد مثال ذلك قول ابن الانباري (29) : « ومن الاضداد ايضا قول العرب للرجل : « ماظلمتك وانت تنصفني» يحتمل معنيين متضادين : احدهما ما ظلمتك وانت

---

(18) ابو حاتم 116 . ابن الدهان 14 .
(19) 110
(20) 437
(21) مجلة الجمعية الآسيوية الملكية بلندن ، سنة 1895 ، ص 223 .
(22) 82 . وانظر اضداد ابي الطيب 208 .
(23) 7 .
(24) 11 ، 15 ، 18 ، 49 .
(25) ابن الانباري 255 ، 242 ، 244 ، 257 . ابو الطيب 273 ، 332 ، 650 ، 85 .
(26) 17 ، 30 ــ 32 .
(27) انظر ادم ، افلت ، مؤدي ، اسد ، اضب ، امعن ، وغيرها .
(28) 196 ، 199 .
(29) 160 .

ايضا لم تظلمني ، بل مذهبك انصافي ، واستعمال ما استعمله من ترك الظلم لك والجنف عليك والمعنى الآخر : ما ظلمتك لو انصفتني ، فاما اذ لم تنصفني فاني اكافئك بمثل فعلك . وقول الله عز وجل : (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) يفسر تفسيرين متضادين : احدهما : وما كان الله معذبهم واولادهم يستغفرون، اي قد وقع له في علمه جل وعز انه يكون لهم ذرية تعبده وتستغفر لهم . فلم يكن ليوقع بهم عذابا يجتث اصلهم ، اذ علم ما علم من صلاح اولادهم وعبادتهم له جل وعلا . والتفسير الآخر : وما كان الله معذبهم لو كانوا يستغفرون ، فاما اذ كانوا لا يستغفرون فانهم مستحقون لضروب العذاب التي لا يقع معها البوار والاصطلام ، بل تكون كما وقع بهم من عذاب الجدب في السنين التي لحقتهم فاكلوا فيها الجيف والعلهز ، وكعذاب السيف والاسر الذي لحقهم يوم بدر وغيره . والله اعلم بحقيقة ذلك كله واحكم » .

ولم يلتفت المؤلفون الاولون في الاضداد لهذا النوع ولم يشيروا اليه في كتبهم . وانما ظهر في القرن الرابع عندما شاعت بين الكتاب الرغبة في الاحاطة والاتساع والاتيان بما لم يات به السابقون. فتجلى عند ابن الانباري، ومن اخذ عنه من اللاحقين عليه كابن الدهان والصغاني .

واضاف الدكتور منصور فهمي الى الاسباب السابقة سببا آخر ، يمكن ان نسميه ـ اذا احسنا الظن ـ تساهل اللغويين ، واذا اسأناه سميناه حب التكثر والتزيد والتباهي بما اورده كل منهم من الاضداد . فقد دفعهم ذلك الى ايراد كثير من الالفاظ لا صلة لها بالاضداد ، وانما هي من المشترك ، مثل العصر والحزور والروح والقلب والفاد وزنا ونسل.. الخ .

وتوجد الى جانب ما ذكرت عدة اسباب اخرى اوردها المستشرقون والدكتور منصور فهمي ، ولكن تنقصها صفة العموم التي تتحلى بها الاسباب التي ذكرتها . فهي لا تتحدث الا عن نوع واحد من الاضداد، ولذلك ابقيها الى حين معالجة انواع الاضداد ..

اصل الاضداد

منذ تنبه اللغويون الى الاضداد، واختلفوا فيها، وهم في محاولة دائبة لتعليلها والكشف عن نشأتها ، وكيف وجدت في اللغة . واشترك في هذه المحاولة من اتفقت آراؤهم ، ومن اختلفت ، ومن اعترفوا بها ومن رفضوها ، والقدماء والمحدثون ، والعرب والمستعربون . وان كثيرا من الآراء التي اتى بها منكرو الاضداد هي في الحقيقة محاولة لتعليل وجودها ، ولذلك ادخرتها لاوردها هنا .

واختلفت الطرق التي سلكها العرب وغير العرب في دراسة هذه الظاهرة اللغوية، في كثير من الاحيان. فقد اوغل بعض المستشرقين في تاريخ البشرية وارجع ظاهرة الاضداد الى العصور القديمة، عندما كان العقل البشري في سذاجته، فلم يكن يفطن لما يعتريه من تناقض . وكان قائل هذه النظرية هو ابل Abel اذ اعلن ان الاضداد هي البقية الباقية مما كان للاوائل من تناقض منطقي في التفكير . ولكن هذا القول لم يلق رواجا حتى في اوساط المستشرقين ، فرد عليه فيل Veil ورفضه هو وراي لجست Leguest الذي ارجع الاضداد الى اشتقاقات مبالغ فيها ..

وتوسط بعضهم في الايغال ، فلم يرجع الى التاريخ البشري ، واقتصر على التاريخ العربي القديم . فاعلن جيز ان العرب اقترضوا بعض هذه الاضداد من اللغات المجاورة لهم . ولما كان معناها الاصلي قد تختلف ايحاءاته ، فقد ادى ذلك الى التضاد في العربية . وضرب مثالا لذلك بلفظ (جلل). اعلن ان العربية اخذته من اللغة العبرية ، وهو فيها بمعنى دحرج . واذ كان الشيء المدحرج ثقيلا احيانا ، وخفيفا احيانا ، فقد اعتمدت العربية على هذين الايحاءين المتضادين للكلمة الواحدة واعطتها معنيين متضادين هما عظيم وحقير .

واقتصد بعضهم الآخر ، ونظر في تاريخ الجماعة الواحدة ، فوجد فيه من التطور ما يؤدي الى التضاد دون استعارة من الخارج . وضرب جيز مثالا لذلك بالفعلين باع وشرى . فقد كان المعنى الاصيل لهما بادل، حين كان البيع والشراء يقوم على مبادلة السلع . فلما عرفت النقود ، اختص كل فعل منهما بواحد من القائمين بالعمل . ولكن رواسب العهد القديم بقيت حية ، فكانت تلقي ظلالها على معنى الفعلين ، فتخلط بينهما .

واضاف الدكتور منصور فهمي الى المثال السابق مثالا من حياتنا الحاضرة ، يلتبس فيه معنى الفعل لحداثة عهد الناس بالحديث الذي يدل عليه . فلما

كنا حديثي عهد بالقناطر (الكبارى) التى تفتح وتغلق، لم نستطع ان نستقر بعد على اعطاء لفظ واحد لكل من عمليها . فنحن نقول : فتحت القنطرة اذا اغلقت فى وجه المارة وفتحت للمراكب ، واذا فتحت امام المارة واغلقت طريق المراكب ايضا . وربما اجتمع الى حداثة العهد اختلاف النظرة .. فاصحاب المراكب يقولون عنها : فتحت ، اذا فتحت لهم واغلقت فى وجه المارة ، وهؤلاء يقولون : فتحت ، ان حدث العكس . ولكن هؤلاء وهؤلاء غير منفصلين ، ومن هنا صار للكلمة معنياها المتضادان والشائعان معا ..

ولم يلتفت فريق الى التاريخ وبحث عن العلة فيمن يراه من جماعة وفرد ، وما يسودهما من ظواهر ذات تاثير فى اللغة . فذهب الى ان بعض المعاني المتضادة يرتبط بعضها ببعض وتتداعى فى الذهن ، فتؤدي الى الاضداد . مثال ذلك كلمة « البين » التى تطلق على الفراق والاجتماع ، والسبب فى ذلك ان الانسان قد يفترق وحده عن جماعته ، وقد يفترق فيلحق بجماعة اخرى . ولا يختلف هذا القول كثيرا عن القول الآخر الذى اوردته دائرة المعارف الاسلامية ايضا منسوبا الى جيز ، ويرى ان الارتباط بين المعنى قد يكون بسبب ان احدهما نتيجة للآخر. مثل خفي البرق بمعنى ظهر واستتر . فان البرق لا يكاد يظهر حتى يختفي ، فالظهور والاختفاء متلاحقان ، وثانيهما نتيجة لاولهما. ومثل « ناء » بمعنى نهض بالحمل فى مشقة ، وحمل الحمل . ومثلهما ما سماه تداخل الاحداث ، فما كان ءاخرا لامر قد يكون اولا لغيره ، وما يكون اولا لامر قد يكون آخرا لغيره مثل « السدفة » فهي الوقت الذى بين النور والظلمة ، يمكن ان تختلف فيها القبائل أو الافراد بل سامعوها من اللغويين فيظنوا ان المراد بها النور وحده أو الظلام وحده .

وءاخر ما جعله جيز من اسباب التضاد غموض الانفعالات والمشاعر وانبهامها واختلافها من شخص الى ءاخر ، وتسرب هذا الغموض الى الالفاظ التى تدل عليها حتى يؤدي بها ذلك الى التضاد . مثال ذلك الذفر ، التى تطلق على الرائحة الطيبة والكريهة . وسبب ذلك اختلاف شعور الانسان بها ، اذ يحبها شخص ويرتاح اليها ، ويتافف منها ءاخر وينفر لشدتها ..

اما اللغويون العرب فقصروا جهودهم على الاضداد العربية ، ولم يبعدوا عنها لا تاريخا ولا لغة ولا اجتماعا ، وحاولوا ان يتبينوا اصولها ونشاتها ومسالكها فى اللغة العربية نفسها . واكثر الآراء التى رايتها شيوعا عندهم كون كثير من هذه الاضداد من ءاثار اللهجات الكثيرة التى ضمتها العربية الفصحى. قال ابن الانباري (30) : « قال ءاخرون : اذا وقع الحرف على معنيين متضادين ، فمحال ان يكون العربي اوقعه عليهما بمساواة منه بينهما ولكن احد المعنيين لحي من العرب ، والمعنى الاخر لحي غيره . ثم سمع بعضهم لغة بعض فاخذ هؤلاء عن هؤلاء وهؤلاء عن هؤلاء .. فالجون الابيض فى لغة حي من العرب ، والجون الاسود فى لغة حي ءاخر . ثم اخذ احد الفريقين من الاخر ..» . وترددت اصداء هذا القول عند ابي علي الفارسي (31) ، وابن الدهان(32) ثم الكتاب المحدثين . وكان احد الدعائم التى استند اليها ابن درستويه (33) فى انكار الاضداد ..

وأورد ابن الانباري رايا آخر لم ينسبه الى احد ، وكان له صداه ، ايضا فى الدراسات اللاحقة . قال (34) : وقال ءاخرون : اذا وقع الحرف على معنيين متضادين ، فالاصل لمعنى واحد ، ثم تداخل الاثنان على جهة الاتساع . فمن ذلك الصريم ، يقال لليل صريم . وللنهار صريم ، لان الليل ينصرم من النهار ، والنهار ينصرم من الليل ، فاصل المعنيين من باب واحد ، وهو القطع . وكذلك الصارخ المستغيث ، سميا بذلك لان المغيث يصرخ بالاغاثة، والمستغيث يصرخ بالاستغاثة ، فاصلهما من باب واحد ..» .

وقد جعل الشيخ محمد الخضري هذا القول واحدا من رايين له فى تعليل نشاة الاضداد قال (35):

---

(30) 11 .
(31) المخصص 13 : 59 .
(32) 5 .
(33) المزهر 1 : 385 .
(34) 8 .
(35) الاصول 174 .

اولهما ان يكون بين المعنيين فكرة واحدة تجمعهما فيصلح اللفظ لكل منهما لاشتراكه في هذه الفكرة . وحين يغفل الناس عن هذه الفكرة المشتركة يظنون ان اللفظ من الاضداد . مثال ذلك الصريم ، هو الليل او النهار . واصل اللفظ من الانصرام بمعنى الانسلاخ ، فالليل صريم لانه ينسلخ من النهار ، والنهار صريم لانه ينسلخ من الليل، وهما متداخلان. ومصداق ذلك الآية الكريمة : « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل » .

ونستطيع ان نضع تحت هذا القول ما علل به عبد الفتاح بدوي التضاد في الفعل باع . فقد راى ان المعنى الاصلي له مد باعه ، سواء للاخذ او العطاء، ومن هنا اطلق على الشاري والبائع لان كلا منهما يفعل ذلك في وقت البيع .

وجاء ابن درستويه بعلتين اخريين للتخالف والتضاد في معنى الكلمات . قال السيوطي (36) حاكيا قوله : « : فلو جاز وضع لفظ واحد للدلالة على معنيين مختلفين او احدهما ضد للاخر لما كان ذلك ابانة بل تعمية وتغطية . ولكن قد يجيء الشيء النادر من هذا العلل ، كما يجيء فعل وافعل . فيتوهم من لا يعرف العلل انهما لمعنيين مختلفين ، وان اتفق اللفظان . والسماع في ذلك صحيح من العرب ، فالتاويل عليهم خطأ . وانما يجيء ذلك في لغتين متباينتين ، او لحذف واختصار وقع في الكلام ، حتى اشتبه اللفظان وخفي سبب ذلك على السامع وتاول فيه الخطأ . وذلك ان الفعل الذى لا يتعدى فاعله ، اذا احتيج الى تعديته لم تجز تعديته على لفظه الذى هو عليه حتى يغير الى لفظ ءاخر ، بأن يزاد في اوله الهمزة ، او يوصل به حرف جر بعد تمامه ، ليستدل السامع على اختلاف المعنيين . الا انه ربما كثر استعمال بعض هذا الباب في كلام العرب ، حتى يحاولوا تخفيفه ، فيحذفوا حرف الجر منه ، فيعرف بطول العادة ، وكثرة الاستعمال، وثبوت المفعول واعرابه فيه خاليا عن الجار المحذوف. او يشبه الفعل بفعل ءاخر متعد على غير لفظه ، فيجري مجراه لاتفاقهما في المعنى ، كقولهم: حبست، الدابة ، وحبست ما لا على المساكين » . فاسباب التخالف عنده تداخل اللغات ، وحذف حرف التعدية من الفعل اللازم لكثرة الاستعمال ، وتشبيه الفعل بمرادفه في المعنى او ما نعرفه اليوم باسم التضمين. ويجدر بنا – قبل ان نترك ابن درستويه – ان نلاحظ انه اضطر الى الاعتراف بانه « قد يجيء الشيء النادر من هذا » في اللغة ، فهو لم يستطع ان ينكر وجود هذا النوع المتخالف والمتضاد من الالفاظ في اللغة ، ويعلن خلوها التام منه ، وانما اعلن انه « نادر » وله علله ..

واسهم ابو علي الفارسي في التعليل ايضا ، فاضاف العلة المجازية . روى ابن سيده عنه (37) : « اما .. اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين فينبغي الا يكون قصدا في الوضع ولا اصلا . ولكنه من لغات تداخلت ، او تكون كل لفظة تستعمل بمعنى ثم تستعار لشيء ، فتكثر وتغلب فتصير بمنزلة الاصل » . وقد كان لهذا الراي الاخير صداه الواسع في تقسيم الاضداد بعد ذلك .

هذه هي الآراء التي جاء بها القدماء في معرض تعليل الاضداد حينا ، ومعرض انكاره حينا ءاخر . وتلقفها عنهم المحدثون فاذاعوها بينهم مقتصرين عليها تارة ، ومتسعين فيها اخرى ، ومتشعبين بها في احوال كثيرة حتى خلصوا الى ءاراء ما كانت تدور في خلد القدماء ..

وبقي امامي المذهب الثاني الذي جعله الشيخ محمد الخضري (38) علة لنشأة الاضداد وهو ان يطلق اللفظ على شيء واحد ، تتغير مظاهره احيانا، فلا يفطن السامع الا الى المظهر ، فيحكم بالتخالف والتضاد .. مثال ذلك عنده الجون ، فالاصل فيها ان تطلق على السحاب . ولما كان من السحاب الابيض ومنه الاسود فقد ظن اللغويون ان هذه الصفة مراعاة في اللفظ ، وانه يطلق على الابيض من السحاب تارة ، وعلى الاسود اخرى ، فهو اذن من الاضداد . وليس الامر كما ظنوا ، فلا تضاد في اللفظ لانه لا يدل الا على السحاب مجردا من كل صفة ..

وءاخر العلل التي عثرت عليها ما اضافه الدكتور منصور فهمي مستقيا اياه من اقوال القدماء عن

---

(36) المزهر 1 : 385 .
(37) المخصص 13 : 59 .
(38) الاصول 174 .

التفاؤل والتطير والتهكم ، اذ ان العرب اعتادوا ان يعدلوا عما يكرهون من الفاظ الى ما يحبون ، فسموا الصحراء المهلكة : المفازة من الفوز ، والاعمى : البصير ، والملدوغ : السليم : ونادوا الجاهل بقولهم : « يا عاقل » . ولا زلنا نحن نسمع في المقاهي عبارة: « خذ المليان » يريدون بها الاكواب الفارغة .

ويؤدي بنا التأمل الدقيق في العلل التي أوردها الدارسون للغة العربية نفسها دون محاولة للفلسفة أو للعثور على نظرية عامة او الابعاد في مجاهل التفكير البشري ، يؤدي بنا هذا النوع من التأمل الى ان اهم ما قالوا من علل واخطره هو « المعنى الاصلي للالفاظ » . فنحن في حاجة الى اعادة النظر في هذه الالفاظ ، وفيما ذكره لها اللغويون من معان، وفي حاجة الى محاولة استكشاف الطريق الى المعنى الاصلي الحق لها ، الذي لا يأبه بما حولها من ملابسات ، ولا بما يرتبط بها من ظواهر ، ولا بما يؤدي اليه من نتائج ، ولا بما قطعه اللفظ من اشواط سائرا في طريق معتدلة هانا ومعوجة هاونة . فان وصلنا الى ذلك المعنى ، غمرنا الضوء من كل مكان ؛ واستبان لنا تطور اللفظ ، وما اكتسبه من معان ودلالات ، وما احيط به من ظلال ، جعلته مشوبا بالغموض احيانا ، وعرضة للخطأ احيانا اخرى ..

واما بقية العلل فهي ارتياد لبعض الطرق التي سلكها اللفظ ليصل الى درجة التضاد مثل اللغات ، والمجاز ، والحذف للتخفيف ، وما اليها من امور .

كذلك يؤدي بنا التأمل الدقيق في الاقوال السالفة الى نتيجة قد تبدو غريبة ولكنها حقيقة واقعة . اعني انه لم يوجد من اللغويين على قدر ما نستطيع الحكم من خلال ما عندنا من معلومات من ينكر وجود الاضداد في اللغة العربية الفصحى . فمن رفضوا الاضداد رفضوا اصالتها ، اريد انهم رفضوا ان تكون وضعت اصلا للمعنيين المتضادين . ولكن ما خضعت له من تطور بالتوسع او المجاز او الحذف ادى الى وجود لفظين متماثلين في كل شيء، بحيث لا يمكن ان نفرق بينهما ونعدهما لفظين متمايزين ، غير ان معنييهما متضادان . كذلك ادى انصباب الروافد القبلية دون تمييز بينها في تيار العربية الفصحى الى ما اشبه الظاهرة السابقة . فالفصحى بصورتها الراهنة تحتوي على هذا النوع من الالفاظ (الذي نسميه الاضداد) باعتراف جميع القدماء ، وان اختلفت اصول هذه الاضداد ، والطرق التي سلكتها حتى وصلت الى التيار الحالي ..

ويؤدي بنا ايضا الى نتيجة اخرى اجمع عليها المنكرون والمؤيدون ، هي قلة الاضداد في اللغة العربية الفصحى . فابن درستويه من المعارضين يصفها « بالشيء النادر » ، وابن الانباري من المؤيدين يقول (39) : « هذا الضرب من الالفاظ هو القليل الظريف في كلام العرب » .

شروط الاضداد

اذا كان من انكر الاضداد اطلق قوله فيها ثم اضطر الى التراجع قليلا عنه ، عندما استقصى النظر في اللغة ، او احتوى قوله على ما يومىء الى تراجع ، فاننا نجد الظاهرة نفسها عند المؤيدين لوجود الاضداد او بعضهم .

فقد كان في وهم المؤلفين الاولين ان الاضداد الفاظ قلائل في اللغة . فحاولوا جمعها وابرازها . وتحت اثر من هذا الاحساس ، ومن هذه الغاية ، جمعوا مع الاضداد الفاظا كثيرة عدوها اضدادا ، وهي واهنة الصلة بها . وكان اكثر المؤلفين وقوعا تحت هذا الاثر قطرب : اول من كتب عن الاضداد .

فاضطر من جاء بعده الى ادخال ما قاله في كتابه كيلا يتهم بانه فاته من الاضداد شيء (40) . ولكن اهل القرنين الثالث والرابع كانوا قد اخذوا يتخلصون من هذا الاثر ، بعد ان راوا امامهم من كتب في الاضداد . فاخذوا يعيدون النظر فيها ، وفي اضداد قطرب خاصة ، وينقدون منها كثيرا . وعند تتبع هذا النقد استخلصت كثيرا من الشروط يجب ان تتوفر في اللفظ حتى يدخلوه في الاضداد . ولكن الامر المؤسف ان هذه الشروط اهملها واضعوها انفسهم ، ولم يطبقوها على كثير من الالفاظ التي دونوها في كتبهم . وبالرغم من ذلك اتتبع هذه الشروط لاهميتها في توضيح «صورة الاضداد» في اذهانهم ، وان لم تتحقق كل التحقق في كتبهم .

واهم مؤلف يكثر عنده هذا النوع من الاقوال هو ابو بكر محمد بن القاسم الانباري . ونستطيع ان نقول انه يضع الشروط التالية في اللفظ ليعده من الاضداد :

---

(39) 6 .

(40) ابو الطيب 688 .

1 ـ ان تكون صيغة اللفظ ذي المعنيين المتضادين واحدة . فاخرج من الاضداد ما كان احد المعنيين لافعل والآخر لفعل . قال (41) : « قال قطرب : من الاضداد قولهم : قد خلمت النعل : اذا انقطعت عروتها وشسعها ، واخلمتها : اذا اصلحت عروتها وشسعها . وهذا ليس عندي من الاضداد ، لان (خلمت) لا يقع الا على معنى واحد ، وكذلك (اخلمت) . ولفظ اخلمت يخالف لفظ خلمت . وما لم يعبر الا عن معنى واحد بلفظه لا يكون من الاضداد » . واتفق ابو الطيب اللغوي مع ابن الانباري في هذا الراي ، بل في كلامه الذى اذكره بعد ما يدل على اتفاقه معه في حديثه عن كل الصيغ التالية .

واخرج ابو بكر منها ما جاء على فعل المجرد وفعل المضاعف . قال (42) : « قال قطرب : من الاضداد قولهم : بدن الرجل : اذا حمل اللحم والشحم ، وبدن تبدينا : اذا اسن وكبر وضعف . قال ابو بكر : وليس الامر عندي على ما ذكر قطرب ، لان (بدن) لفظه يخالف لفظ (بدن) . وما لا يقع الا على معنى واحد لا يدخل في حروف الاضداد» .

واخرج منها على ما كان على فعل وفعل وفعيل من الصفات . قال (43) : « قال قطرب : من الاضداد قولهم : رجل نجد : اذا كان سريع الاجابة الى الداعي اذا دعاه .. ويقال : رجل نجد : اذا كان مفزعا من اي وجه .. وقال غير قطرب : يقال للمفزع : منجود ونجيد .. قال ابو بكر : وليس النجد عندي من الاضداد ، لان العرب لا توقعه الا على معنى واحد ، وما كان بهذه الصفة لا يدخل في الاضداد » .

واخرج ما كان على فاعل ومفعول ، قال (44): « ومن حروف الاضداد : الطاحي : المنضجع . والطاحي : المرتفع ... هذا قول قطرب . وليس الطاحي عندي من الاضداد ، لانه لا يقال طاح للمنخفض ، انما يقال للمنخفض مطحو ومطحى » .

واخرج ما كان فعلا واسما ، قال (45) : « قال قطرب : من الاضداد قولهم : قد جمرت المراة : اذا جعلت لها كالنزعتين من حلق ونتف ـ والنزعة : ما ينحسر من شعر جانبي الراس الذى يعضد نابت في الجبين ـ قال : ويقال للذؤابة جمار . ويقال : للمراة جماران ، اي ذؤابتان ضفرتا مقبلتين على وجهها .. فقول قطرب : جمرت المراة ولها جماران من الاضداد ، ليس بصحيح ، لان جمرت لا يكون بمعنى وفرت الشعر ، ولا يقال : جمار لما يضاد الذؤابة ، فلا وجه لادخاله في حروف الاضداد » .

فابن الانباري يشترط ان يكون المعنيان المتضادان لفعلين او اسمين او صفتين ، وكل منها على وزن واحد ، ولا يحكم بالتضاد فيما شذ عن ذلك .

كذلك اشترط ان يكون للصيغة الواحدة معنيان متضادان لا يمكن ردهما الى معنى واحد ، قال (46): « قال بعض الناس : طرب : حرف من الاضداد . يقال : طرب اذا فرح ، وطرب اذا حزن .. ولم يصب هذا القائل عندي ، لان الطرب ليس هو الفرح ولا الحزن ، وانما هو خفة تلحق الانسان في وقت فرحه وحزنه » .

واتفق ابو الطيب اللغوي معه في هذا الراي ، قال (47) : « ابو حاتم وقطرب قالا : ومن الاضداد المأتم . فالمأتم النساء المجتمعات في فرح وسرور ، والمأتم النساء المجتمعات في غم وحزن ومناحة ... وقال غيرهما : المأتم جماعة النساء ، لا واحد لها من لفظها ، وسواء كن في وليمة او مناحة او في غيرهما بعد ان يكن مجتمعات . فعلى هذا ليس المأتم عنده من الاضداد » .

---

(41) 276 . وانظر 583 ، 291 ، 298 ، 304 .
(42) 310 .
(43) 320 .
(44) 302 .
(45) 279 .
(46) 57 . وانظر 58 ، 92 .
(47) 21 . وانظر 37 ، 57 .

واشترط ابن الانباري ايضا ان يكون هذان المعنيان فصيحين لا من ابتكار العامة ، قال (48) : « قال قطرب : الحرفة من الاضداد ، يقال : قد احرف الرجل احرافا اذا نما ماله وكثر ، والاسم الحرفة من هذا المعنى . قال : والحرفة عند الناس الفقر وقلة الكسب . وليست من كلام العرب انما تقولها العامة » .

واشترط ان يكون المعنيان معروفين استعملهما العرب في حوارهم . قال (49) : « قال قطرب : من الاضداد : الهجر ، يقال : هجرت الرجل : اذا اعرضت عنه ، وهجرت الناقة : اذا شددت في انفها الهجار ـ وهو حبل ـ لتعطفها على ولد غيرها .. وهذا القول عندي بعيد ، لان المعنى الثاني لم يستعمل في الناس ».

ويبدو ان ابا الطيب اللغوي يتفق مع ابن الانباري في هذا الراي ايضا ، وان لم يعلن ذلك صراحة » قال مثلا (50) : « قال قطرب ، ومن الاضداد التفل . فالتفل المنتن ، والتفل المتطيب . قال ابو الطيب : المعروف من التفل المنتن » .

واشترط ابو الطيب الا يكون المعنى الثاني مجازيا . فاخرج من الاضداد (51) : « ما جاء مسمى باسم غيره ، لما كان من سببه » مثل العشراء الذي يطلق على الناقة التي بلغت عشرة اشهر في حملها ، والناقة التي نتجت حديثا ، والارة الذي يطلق على الحفرة التي فيها النار ، وعلى النار نفسها .

واشترط في المعنى الا يكون مقلوبا او مزالا عن جهته ، مثل قولهم ناء بي الحمل ، ويا خيل الله اركبي . ولم يعد ذلك من الاضداد (52) .

وانفرد ابو الطيب اللغوي باخراج مجموعة من الالفاظ تتضاد في معانيها وتتماثل في صورتها ، ولكن هذه الصورة المتماثلة في ظاهرها مختلفة في حقيقتها ، اذ تختلف العلل ، الصرفية التي وصلت بها الى صورتها . مثال ذلك قوله (53) : « ومن الاضداد ـ زعم التوزي ـ قولهم : رجل مود اي هالك ، ورجل مود اذا كان ذا سلاح قويا . قال ابو الطيب : وليس كذلك ، لان المودي الهادي غير مهموز ، وفاء الفعل منه واو ، يقال : اودى الرجل يودي ايداء اي هلك .. والمؤدي من السلاح مهموز ، وفاء الفعل منه همزة ، وانما معناه ذو اداة الحرب . يقال : قد ادى يؤدي : اذا تمت اداته للحرب وسلاحه .. فهذا غير الاول » . وقد ادى به هذا التصور للاضداد الى ان يخرج منها ما جاء على مفتعل ومفتعل مما عينه منقلبة عن ياء او واو ، اذ لا يبين فيه كسر العين وفتحها لسكون الالف، مثل المبتاع والمجتاب والمجتاح ، ومن المدغم العين في اللام ، مثل المبتز والمحتز والمختص . ووضعه في اخر الكتاب (54).

واخرج مجموعة تماثلها لاختلاف حرف العلة الاصلي فيها ، قال (56) : « قال ابو حاتم : ومن الاضداد قولهم : ضاع فلان ، من الضياع ، وضاع الشيء اذا ظهر وبدا .. قال اللغوي ، واما انا فلا ارى هذا من الاضداد ، لان شرط الاضداد ان تكون الكلمة انواحدة بعينها تستعمل في معنيين متضادين، من غير تغيير يدخل عليها . وقولهم : ضاع يضيع من الضياع انما الالف فيه منقلبة عن ياء ... وقولهم ضاع اذا ظهر الالف فيه منقلبة عن واو »

بل ذهب الى ابعد من ذلك واخرج من الاضداد ما اختلفت صيغ المجرد والمصدر منه من الافعال ، وعد ذلك اختلافا بينهما . قال (57) : « ومن الاضداد القانع ، زعموا . قالوا : فالقانع الراضي ، والقانع السائل الطالب... قال عبد الواحد: ليس هذا عندي من الاضداد ، لان شرط الاضداد ، على ما اصلنا

---

(48) 267 .
(49) 213 . وانظر 288 ، 289 ، 300 ، 346 .
(50) 113 . وانظر 163 .
(51) 711 .
(52) 720 .
(53) 671 .
(54) 691 .
(56) 452 .
(57) 577 .

اولا ، ان تكون الكلمة الواحدة تنبيء عن معنيين متضادين ، من غير تغيير يدخل عليها ، ولا اختلاف في تصرفها .. والقانع بمعنى الراضي يقال منه قنع يقنع ، مثل شرب يشرب ، والمصدر قناعة وقنعا وقناعا وقنعانا ـ اي رضي ـ فهو قانع وقنوع . والقانع ـ بمعنى السائل ـ يقال منه قنع يقنع مثل صنع يصنع ، والمصدر قنوعا لا غيره ... واذا تغير البناء لتغيير المعنى فليس من الاضداد » .

ونستخلص من هذا غموض صورة الاضداد في ذهن قطرب او عدم وجود حدود لها ، واخذها في الوضوح والجلاء والتحدد على مر الزمن .. فكانت اللمحات الاولى عنها عند ابي حاتم السجستاني . ثم كان كمال البروز والتحدد عند ابن الانباري وابي الطيب .

انواع الاضداد

نستشرف من الحديث السابق عن اسباب الاضداد ، والاختلاف فيها ، وتغير تصورها عند اللغويين ، نستشرف منه ان الاضداد لم تضم ثلة واحدة من الالفاظ كان من المحتمل ان يتفق عليها العلماء او على كثير من الظواهر المتصلة بها .

وبالرغم من احساس العلماء المبكر بأن الاضداد ثلات عدة ، لم اجد بين القدماء من حاول ان يصنفها، تصنيفا قاصرا او شاملا . وبالرغم من أن المحدثين اضطروا الى الفصل بين انواع منها ، ليسهل عليهم رفضها او تعليلها ، فانهم لم يرتقوا بهذا الفصل الى ان يكون تصنيفا .

والرجل الوحيد الذى حاول شيئا من ذلك هو عبد الفتاح بدوي . ويبدو انه اراد ان يعوض ما فات اللغويين ، فاعطانا تقسيمين لا واحدا . اما التقسيم الاول فصغير ومحكم ، ويقوم على اساس نحوي . فقد جعل الاضداد اربعة انواع :

1 ـ اضداد في اللفظ المفرد ، كالقرء للحيض والطهر .

2 ـ اضداد في الفعل ، كظن للشك واليقين .

3 ـ اضداد في التراكيب ، كعبارة « تهيبت الطريق وتهيبتني الطريق» .

4 ـ اضداد في المتعلقات ، كرغب عنه ورغب فيه .

وكان التقسيم الثاني واسعا ، ينظر الى عدة اسس بحيث تغيب عن النظر الذى يريد ان يصل اليها . فالاضداد في هذا التقسيم تقع في عشر طوائف ، هي :

1 ـ الاضداد التي تحقق المعنى في كل من المتعلقين على حد سواء ، مثل اطلاق الصارخ على كل من المغيث والمستغيث .

2 ـ الاضداد التي يكون احد معنييها حقيقيا والاخر مجازيا ، مثل اطلاق الكأس على الاناء والشراب الذى فيه .

3 ـ الاضداد الآتية من لهجات مختلفة ، مثل وثب وسجد .

4 ـ الاضداد التي يصح ان ينسب مصدرها الى اي من الطرفين ، مثل اطلاق المولى على السيد والخادم .

5 ـ الاضداد التي تتوافق منطقا وتختلف تصريفا ، مثل اطلاق المختار على الشخص الذى اختار ، والشيء الذى اختير .

6 ـ الاضداد الناتجة عن المتعلقات ، مثل رغب فيه ورغب عنه .

7 ـ الاضداد الناتجة عن السياق ، مثل : « نسوا الله فنسيهم » .

8 ـ الادوات والحروف ، مثل ان واذ واذا .

9 ـ الاضداد الناتجة من التفسير ، مثل شاة درعاء ، ومأتم ..

10 ـ الاضداد الناتجة من تعسف اللغويين ، مثل بعض .

ومهما يكن من شيء ، فانني لن اعنى كثيرا بالتقسيمات النظرية ، وان كنت لن اهملها كل الاهمال . واجعل همي كله في تتبع الانواع المختلفة التي ادخلها مؤلفو الاضداد فعلا . في كتبهم ، اذا اختلف النظر والتطبيق عندهم . وابدأ باول مؤلف : قطرب ، اذ توسع في تصور الاضداد اكثر من غيره، حتى اضطر من جاء بعده الى نقده . ورفض كثيرا منها . ولن اقف عند التقسيم ، بل اتبع كل صنف بما وجه اليه من نقد . وهاك ما وجدته من اصناف عند قطرب :

1 ـ الاضداد الحقيقية ، اعني الالفاظ ذات المعنيين المتقابلين عنده . قال (58) : « العقوق للحامل والعقوق للحائل ايضا» . وقال (59) : وقالوا في الاضداد : النحاحة : السخاء ، والنحاحة : البخل » . ونازعه غيره في تضاد بعض ما جاء به من الفاظ .

قال ابو الطيب (60) : وحكى : يقال : بردت الماء ، من البرد ، اي جعلته باردا . وبردته : سخنته. قال : وانشدنا بعضهم :

شكت البرد في المياه ، فقلنا
برديه توافقيه سخينا

قال قطرب: معنى برديه في هذا البيت سخنيه. وقال ابو حاتم : هذا خطأ ، انما هو برديه (يريد : بل رديه) من الورود ، ولكنه ادغم اللام في الراء ، كما يقرأ (كلا ، بل ران على قلوبهم) قال ابو الطيب : وهذا الصحيح ، وبه يستقيم معنى البيت». وقال ابن الانباري عن لفظ «اخر (61) : « ومن حروف الاضداد البحتر : يقال رجل بحتر ، اذا كان قصيرا ـ او بهترا بالهاء ايضا ـ ويقال : رجل بحتر اذا كان عظيما . ذكر هذا قطرب ، وما علمنا احدا وافقه على ان البحتر يقال للعظيم » .

2ـ الالفاظ المتضادة المعاني من اختلاف الصيغ ، مثل فعل وافعل ، وفعل وفعل من الافعال، وفعل وفعل وفعيل من الصفات . وقد اوردت «انفا امثلتها ، وما وجهه اليها ابن الانباري وابو الطيب من نقد، واخراجهما اياها من الاضداد. والحق معهما، ولذلك لم يوافق قطربا من اتى بعده من مؤلفي الاضداد. فاستبعده اكثرهم من كتبه . وربما كان واجبا ان نستثني ابا عبيدة والتوزي من هذا الحكم ، اذ يبدو انهما اورداه في كتابيهما . قال ابو الطيب (62) : « قال ابو عبيدة : ترب الرجل يترب تربا : اذا لصق بالتراب من الفقر .. واترب الرجل يترب اترابا : اذا كثر ماله ككثرة التراب . فالترب المحتاج ، والمترب الغني» وقال ابو الطيب ايضا (63) : « قال التوزي : ومن الاضداد ثبت الرجل اذا اعطيته من الثواب ، واثبته اذا طلبت نواله . قال ابو حاتم : ولا اعرف الثاني الا توهما » .

اما الاصمعي فوجدت عنده مثالا لو صح وضعه مع ابي عبيدة والتوزي . قال (64) : « قسط : جار. واقسط بالالف : عدل لا غير . قال الله جل ثناؤه : (واقسطوا ان الله يحب المقسطين) اي العادلين . وقال في الجائرين : (واما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) .. » . ويخيل لي ان في العبارة سقطا ، وتتمتها : « قسط : جار ، وقسط : عدل . واقسط بالالف:عدل لا غير»بدليل عبارة(لا غير) وبدليل ورودها على هذه الصورة عند ابن السكيت الذي يروي كثيرا من الاضداد عن الاصمعي ، وورودها كذلك عند غيره.

3 ـ الالفاظ التي تتفق في الصيغة والحدث، وتختلف في نسبته الى من قام به او من وقع عليه . ومثالها فعيل التي تدل على الفاعل والمفعول . قال (65) : «الربيبة : التي تربب . والربيبة : التي تربت. قال الله عز وجل في الربيبة : « وربائبكم اللاتي في حجوركم » .

(58) 69 . واورده ابو حاتم 224 ، وابن الانباري114 ، وابو الطيب 495 ، وابن الدهان 15 والصغاني 588 .
(59) 133 . واورده ابو حاتم، 253 ، وابن الانباري 301 وابو الطيب 650 وابن الدهان 20 ، والصغاني 670 .
(60) 86 . واورده ابن الانباري 31 ، وابن الدهان 7 .
(61) 257 . واورده قطرب 49 ، وابو الطيب 85 ، وابن الدهان 7 ، والصغاني 389 .
(62) 115 . واورده ابن الانباري 291 .
(63) 124 .
(64) 21 . واورده قطرب 98 ، وابن السكيت 293 وابن الانباري 26 وابو الطيب 594، وابن الدهان 17 ، والصغاني 625 .
(65) 84 . واورده الاصمعي 80 ، وابو حاتم 174،وابن السكيت 353 ، وابن الانباري 85 وابو الطيب 310 ، وابن الدهان 11، والصغاني 472 .

وصيغة فعول ، قال (66) : « ومنها قول الله عز وجل : (فمنها ركوبهم) لما يركب . وركوب للفاعل ايضا مثل ضروب وقتول . وقالوا : مكان ركوب : اي مركوب . وقال الاخر : « يدعن صوان الحصى ركوبا » اي مركوبا . طريق ركوب ، وطرق ركب. وقال اوس :

تضمنهـا وهـم ركـوب كانهـا
اذا ضم جنبيه المخـــارم رزدق

وهو الصف من الناس اذا انقطعوا ، وهو بالفارسية رزده » .

وصيغة فاعل ايضا ، قال (67) : « وقد جاءوا بفاعل في معنى مفعول ضدا ، قالوا : سر كاتم ، اي مكتوم، وامر عـارف، وما انت بحازم عقـل : اي محزوم عقل ، وهذه تطليقة بائنة : اي مبانة فيها . اخبرنا الثقة : ومثله قول الله جل وعلا : (لا عاصم اليوم من امر الله) كانه يريد لا معصوم ، و (هو في عيشة راضية) من ذلك اي مرضية ، وقد يجوز ان يكون المعنى في راضية لاهلها ...» . ويرى بعض النحويين ان العبارات تحتوي على فاعل مقدر بعد الصفات ، فالتقدير عنده سر كاتمه صاحبه او سامعه وامر عارفه الناس ... الخ .

ووافق اللغويون قطربا في عد هذا النوع من الاضداد ، وادخلوه في كتبهم . وتنبه بعضهم الى جمع الالفاظ المختلفة تحت صيغتي فعول وفعيل ، وفرقها بعضهم الاخر . فجمع قطرب معظم صيغ فعول وعقد لها عنوانا خاصا بها ، ولم يجمع صيغ فعيل. واتبعه في الامرين ابو حاتم ، حتى اشتركا في كثير من الالفاظ التي اوردها (154 – 163) . وجمع الاصمعي بعض صيغ فعول دون عنوان (87 – 91) واهمل صيغ فعيل . فاتبعه ابن السكيت .

واضاف ابو حاتم صيغة فعال ، التي تطلق على الفاعل والمفعول اليه. قال (68) : « التواب : التائب الفاعل . والتواب : الله تعالى . قال : (وان الله تواب حكيم) . وقال الله تعالى : (ان الله يحب التوابين) » .

ويجدر بنا ان نلاحظ ان الاحداث التي تدل عليها هذه الالفاظ او اغلبها تحتاج الى الاشتراك ولا يمكن ان تقع لفرد واحد . فالتربية مثلا تحتاج الى من يقوم بها والى من تقع عليه ، والركوب يحتاج الى راكب ومركوب .. الخ .

4 – الالفاظ المشتركة المعنى المختلفة مظاهره ، مثل قول قطرب (69) : « اهنف الرجل اهنافا – بالنون والتاء : ضحك ضحكا رويدا . واهنف ايضا : بكى . ويقال : تهانف الرجل تهانفا : اذا ضحك ضحك تعجب » . وقال ابن الانباري : « تهانف معناه قال : ايها ايها في البكاء » . والواضح ان الاهناف هو الحركة والصوت اللذين يصدران من الباكي والضاحك ، فالمعنى واحد ، غير ان مظاهر مختلفة تتصل به . ومثله الماتم كما راينا .

ولم ينفرد قطرب بهذا النوع ، بل وجد عند غيره من اصحاب الاضداد . فقد اورد الاصمعي في كتابه الطرب ، التي مر بنا نقد ابن الانباري لها . ولم اجد عند ابي حاتم من هذا النوع الا ما نقله من قطرب وابي زيد . مثال ذلك قوله (70) :

« قال ابو زيد : طبخته : اذا شويته ، وكذلك اذا طبخته في القدر . قال : ويقال ، طبخته الشمس اي احرقته ، وطبختـه في التنـور : اي شويته ..» فالمراد بالطبخ الانضاج ، سواء اكان بالشي ام بالغلي في القدر ..

والغريب ان ابن الانباري الذي نقد كثيرا مما ذكره غيره ، وقع هو نفسه فيه ، ورضي عن كثير منه . ومن اغرب ذلك قوله (71) : « الصلاة من الاضداد . يقال للمصلي من مساجد المسلمين صلاة ، ويقال لكنيسة اليهود صلاة . قال الله عز وجل :

---

(66) 13 . واورده الاصمعي 90 ، وابو حاتم 154،وابن السكيت 362 ، وابن الانباري 239 وابو الطيب 306 ، وابن الدهان 17 ، والصغاني 481 .
(67) 33 – 44
(68) 196 . واورده ابن الانباري 338، وابو الطيب111 ، وابن الدهان 8 ، والصغاني ، 411 .
(69) 52 . واورده ابن الانباري 258 ، وابو الطيب 683 ، وابن الدهان 21 .
(70) 211 . واورده ابو الطيب 462 ، والصغاني 554 ، ووضعه ابن الانباري في اشباه الاضداد 185.
(71) 225 . وانظر 227 .

(يا ايها الذين ءامنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى) اراد لا تقربوا المصلى ، هذا تفسير ابي عبيدة وغيره. وقال عز ذكره : (لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد) والصلوات عني بها كنائس اليهود ، واحدتها صلاة ..» فالصلاة موضع صلاة الانسان ، مسلما كان او مسيحيا او يهوديا او غيرهم .

ويتمثل هذا النوع ايضا في اضداد ابي الطيب ، وابن الدهان ، والصغاني ، بسبب كونها تستهدف الجمع ، فهي تورد ما اوردته الكتب السابقة عليها . بل اضاف بعضها الفاظا جديدة لم ارها فيما بين يدي من كتب . ومثالها ما اورده الصغاني في قوله (72) : العجباء : التي يتعجب من حسنها ، والتي يتعجب من قبحها » . واللفظ غني عن التعليق، فالواجب ان يفسر بانه التي يتعجب منها ، سواء كان ذلك التعجب للحسن او القبح او غيرهما .

5 ــ المشترك المعنى المختلف المفهوم تبعا لاختلاف المتعلقات ، مثل قول قطرب (73) : «ومنه ايضا راغ عليهم : اتاهم . وراغ عنهم : ذهب عنهم وتنحى . وقال الله جل ثناؤه (فراغ عليهم ضربا باليمين) اي اقبل عليهم ضربا بالآلهة .. » وقد نقد بعضهم قطربا على هذا اللفظ ، قال ابن الانباري : « قال الفراء : لا يقال لمن رجع : راغ ، الا ان يكون مخفيا رجوعه .. وقال غير الفراء : لا يكون راغ ابدا الا بمعنى رجع على السبيل الذى ذكر الفراء ، وليس بحرف من الاضداد على ما ادعى قطرب » . وواضح ان معنى راغ واحد ، وهو الحركة الخفية ، ثم يحدد الحرف الذى يوضع بعد الفعل اتجاه هذه الحركة. فاذا كان الى او على ، كانت الحركة اقبالا ومجيئا . واذا كان عن ، كانت الحركة ادبارا وابتعادا .

ولكن قطربا لم ينفرد بهذا النوع من الاضداد ، بل وجد عند غيره من المؤلفين في الاضداد . ومثاله عند الاصمعي ما جاء في قوله (74) : « وحكي ان الاقهام الجوع ، وانشد : ــ وهو الى الزاد شديد الاقهام ــ يقال : اقهم عن الطعام واقهى : اذا لم يشتهه . واورد ابن السكيت وابو حاتم وابن الانباري وابن الدهان والصغاني ما ذكره سابقوهم من هذا النوع ، دون تعليق او نقد . واحسن من نقد هذا النوع هو عبد الفتاح بدوري في قوله : « جلي الا تفاد في شيء من الرغبة او الروغ او الانصراف (في قولنا رغبت فيه وعنه ورغت عليه وعنه وانصرفت اليه وعنه) انما الضدية بين معنى في وعن ، وعلى وعن ، والى وعن . وهذه الحروف الفاظ مختلفة ، ليست من الضدية التي نبحث عنها في شيء ، فاين اللفظ الذى له معنيان متقابلان ؟» .

6 ــ الالفاظ التي اختلفت في العدد الذى تدل عليه قال قطرب (75) : « وقالوا ايضا : الزوج ، الفرد ، يقال : عندي زوجان من خفاف اي خفان . والزوج : الزوج ايضا » . وعلق ابن الانباري (240) على ذلك بقوله : « وهذا عندي خطا ، لا يعرف الزوج في كلام العرب لاثنين ، انما يقال للاثنين زوجان . بهذا نزل كتاب الله ، وعليه اشعار العرب. قال الله عز وجل (وانه خلق الزوجين الذكر والانثى) اراد بالزوجين الفردين ، اذ ترجم عنهما بذكر وانثى . وقال عز ذكره : (ثمانية ازواج من الضان اثنين ، ومن المعز اثنين) وكذلك ما بعدهما ، فالازواج معناهما الافراد لا غير . والعرب تفرد الزوج في باب الحيوان ، فيقولون : الرجل زوج المراة ، والمراة زوج الرجل ... فمن ادعى ان الزوج يقع على الاثنين فقد خالف كتاب الله جل وعز ، وجميع كلام العرب ، اذ لم يوجد فيما شاهد له ، ولا دليل على صحة تاوله » . واظن ان سبب هذا الخلط ، ان اللفظ لا يطلق على كل فرد وانما الفرد الذى لا بد من اقترانه بآخر . وعلى اي حال فاللفظ لا يحتوي على معنيين متضادين ، وانما اختلف الناس في العدد الدال عليه فحسب : واحد او اثنين ، وليس هذا بتضاد .

ووقع فيما وقع فيه قطرب من اللغويين ابو عبيدة ، قال ابن الانباري (76) : « ضعف حرف من الاضداد عند بعض اهل اللغة ، يكون ضعف الشيء

(72) 574 .
(73) 209 . واورده ابو الطيب 328 ، وابن الدهان 11 ، ونقده ابن الانباري 92 .
(74) 13 . ورواه قطرب 104 ، وابن السكيت 288، وابن الانباري 144 ، وابو الطيب 596 وابن الدهان 18 ، والصغاني 636 .
(75) 112 . واورده ابو الطيب 338 والصغاني 492 ونقده ابن الانباري 281 .
(76) 78 . واورده ابن الدهان 14 ، والصغاني 551 .

مثله ويكون مثليه . قال الله عز وجل (يضاعف لها العذاب ضعفين) قال ابو العباس ، عن الاثرم ، عن ابي عبيدة معناه يجعل العذاب ثلاثة اعدية ، قال : وضعف الشيء مثله ، وضعفاه مثلاه . وقال ابو عبد الله هشام بن معاوية : اذا قال الرجل : ان اعطيتني درهما فلك ضعفاه ، معناه فلك مثلاه قال : والعرب لا تفرد واحدهما ، انما تتكلم بهما بالتثنية . وقال غير هشام وابي عبيدة : يقع الضعف على المثلين . قال ابو بكر : وفي كلام الفراء دلالة على هذا » . وفي هذا القول مغالطة ، لان ضعف الشيء اما ان يراد الشيء معه فيصير الجميع مثلي الاول ، واما ان يراد وحده فيكون مثله فحسب .

وكذلك سار في طريقهما ابن الانباري ، اذ ارتضى قول الفراء (77) : « مثل حرف من الاضداد ، يقال : مثل ، للمشبه للشيء والمعادل له ، ويقال : مثل ، للضعف فيكون واقعا على المثلين . زعم الفراء : انه يقال رايتكم مثلكم . يراد به رايتكم ضعفكم ، ورايتكم مثليكم يراد به رايتكم ضعيفكم . من هذا قول الله عز وجل : (يرونهم مثليهم راي العين) معناه يرى المسلمون اي ثلاثة امثالهم ، لان المسلمين كانوا يوم بدر ثلاث مئة واربعة عشر رجلا ، وكان المشركون تسع مئة وخمسين رجلا . فكان المسلمون يرون المشركين على عددهم ثلاثة امثالهم » وفي هذا القول ما في اللفظ السابق من خطأ في الشرح .

ويقرب من هذا الضمير (نحن) ، الذي ادخله ابن الانباري في اشباه الاضداد قال (78) : « ومما يشبه حروف الاضداد نحن ، يقع على الواحد والاثنين والجميع والمؤنث فيقول الواحد : نحن فعلنا . وكذلك يقول الاثنان والجميع والمؤنث . والاصل في هذا ان يقول الرئيس الذي له اتباع يغضبون بغضبه، ويرضون برضاه ، ويقتدون بافعاله : امرنا ونهينا ، وغضبنا ورضينا ، لعلمه بانه اذا فعل شيئا فعلنه اتباعه . ولهذه العلة قال الله جل ذكره : ارسلنا ، وخلقنا . ثم كثر استعمال العرب لهذا الجمع حتى صار الواحد من عامة الناس يقول وحده : قمنا وقعدنا ، والاصل ذاك » .

ومهما يكن ، فليس هذا النوع من الاضداد ، واسوتنا في ذلك من اهمله من اللغويين امثال الاصمعي وابي حاتم وابن السكيت وابي الطيب ..

7 ـ الاضداد من اللغات . قال قطرب (79) : « المعصر ـ في لغة قيس واسد ـ التي قد دنت من الحيض . واعصرت المراة اعصارا . وقد دنا اعصارها. وبلغة الازد : التي قد ولدت او تعنست » . وسار على هذا المسلك جميع المؤلفين في الاضداد ، وان عارضهم بعض اصحاب المعاجم مثل ابن دريد . ومثال هذا النوع عند الاصمعي قوله(80): في المادة الاولى من كتابه : « القرء عند اهل الحجاز الطهر ، وعند اهل العراق الحيض .. » . وفي اضداده ايضا (81) : « قال ابو زيد : السدفة في لغة تميم الظلمة ، وفي لغة قيس الضوء . قال ابن مقبل :

وليلة قد جعلت الصبح موعدها
بصدرة العنس حتى تعرف السدفا

اي اسير حتى الصبح فترى ضوء الصبح . وقال العجاج : « ـ واقطع الليل اذا ما اسدفا ـ اي اظلم » . وقال ابو حاتم (82) : « العنوة : القهر . واهل الحجاز يقولون الطاعة . يقال : اخذته عنوة اي قهرا ، وقال اهل الحجاز طاعة ، وانشدوا :

هل انت مطيعي ايها القلب عنوة
ولم تلح نفس لم تلم في احتيالها

وقال كثير :

---

(77) 79 . واورده ابن الدهان 19 ، والصغاني 657 .
(78) 113 . واورده ابن الدهان 20 .
(79) 101 . واورده ابن الانباري 136 وابو الطيب 509 وابن الدهان 15 والصغاني 584 .
(80) واورده قطرب 99 ، وابو حاتم 134 ، وابن السكيت 276 ، وابن الانباري 8 ، وابو الطيب 571 ، وابن الدهان 17 ، والصغاني 620 .
(81) 43 . واورده قطرب 5 ، وابو حاتم 114 ، وابن السكيت 316 ، وابن الانباري 564 ، وابو الطيب 346 ، وابن الدهان 12 ، والصغاني 500 .
(82) 185 . واورده قطرب 173 ، وابن الانباري 42 ، وابو الطيب 491 وابن الدهان 15 .

تجنبت ليلى عنوة ان تزورها
وانت امرؤ في اهل ودك تارك

اي طائعا » . وكل ما ذكره السالفون من اضداد اللغات نجده عند اللاحقين منهم مثل ابن السكيت وابن الانباري وابو الطيب وابن الدهان والصغاني .

8 ـ الفاظ التثنية التي لا تفرد . قال قطرب (83) : « الصرعان : ناحيتا النهار ، اي اوله وءاخره. ومنه مصراعا الباب يلمان ايضا . ضدان . ذلك لاول النهار وءاخره » . وتابعه في هذا ابن الدهان وحده. واعترض عليه ابن الانباري قائلا : « وقال غيره : الصرعان الغداة والعشي جميعا ، ولا يقع على واحد منهما دون صاحبه . وكذلك القرنان والبردان كما يقال لليل والنهار : الملوان ، والفتيان ، والردفان ، والعصران ، والجديدان ، والاجدان ، وابناسبات » . وافغله غيرهما ، مما يدل على ان القدماء انفسهم لم يرضوا عن هذا النوع .

9 ـ المشترك من الالفاظ دون ان يتضاد . ومثاله ما اوردته ءانفا من جمرت الشعر ، وللمراة جماران . ونقد ابن الانباري له . وبرغم ذلك لم يبرأ بعض اللغويين من الخلط بين الالفاظ ذات المعاني المتضادة والالفاظ ذات المعاني المختلفة فقط، كما فعل قطرب فهذا هو الاموي يقول (84) : « نار غاضية : اي عظيمة . وليلة غاضية : شديدة الظلمة » . والتضاد غير واضح فيه ، الا اذا فهمنا ان الغاضية هي النار الشديدة الاضاءة .

ووردت في اضداد الاصمعي كلمتان لا تمتان الى الاضداد ، هما ضنين وظنين ، قيل (85) : « واما قوله : « وما هو على الغيب بضنين » و « بظنين » فهما وجهان معروفان . فالضنين البخيل ، يقال : ضننت اضن ضنا . والظنين المتهم ، وهو من الظنة اي التهمة ..» فهما اقرب الى كتب الابدال منهما الى كتب الاضداد . ولذلك لم يوردهما احد ممن جاء بعده .

وورد في اضداد الاصمعي تفسير عارض للفظ الانقياص ، اذ قيل في مادة (قلص) (86) : « ويقال قد قلص الظل : اذا قصر ... وقلص ماء البئر : اذا جم وكثر . قال الراجز :

يا ربها من بارد قلاص
قد جم حتى هم بانقياص

والانقياص : ان تنشق الركية طولا او السن ، قال ابو ذؤيب الهذلي :

فراق كقيص السن فالصبر انه
لكل اناث عثرة وجبور »

وسها ابن السكيت في غمرة تتبعه لالفاظ الاصمعي، فالتقط اللفظ ، وخصص له مكانا بين اضداده ، بعد مادة قلص . ولكن احدا غيره لم يقع في هذا السهو ..

10 ـ الالفاظ المختلف في تفسيرها . قال ابن الانباري (87) : « فوق حرف من الاضداد ، يكون بمعنى اعظم كقولك : هذا فوق فلان في العلم والشجاعة ، اذا كان الذي فيه منهما يزيد على ما في الاخر ، ويكون فوق بمعنى دون قولك : ان فلانا لقصير وفوق القصير ، وانه لقليل وفوق القليل ، وانه لاحمق وفوق الاحمق ، اي هو دون المذموم باستحقاقه الزيادة من الذم . ومن هذا المعنى قول الله عز وجل (ان الله لا يستحيي ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) يقال : معنى قوله : « فما فوقها » : فما دونها .

ويقال : معناه فما هو اعظم منها . وقال الفراء: الاختيار ان تكون فوق في هذه الآية بمعنى اعظم ، لان البعوضة نهاية في الصغر ، ولم يدفع المعنى الاخر ولا رءاه خطا وقال قطرب : فوق تكون بمعنى دون مع

---

(83) 106 ، وابن الدهان 14 ، وابن الانباري 127.
(84) الاصمعي 62 ، وابن السكيت 336 ، وابن الانباري 209 ، وابن الدهان 16 ، والصغاني 559 ، وابو الطيب 524 .
(85) 109 .
(86) 11 ، وابن السكيت 286 .
(87) 153 . واورده ابو حاتم 178 ، وابو الطيب 536 ، وابن الدهان 17، والصغاني 616 ، وانظر قطربا 163 .

الوصف كقول العرب : انه لقليل وفوق القليل ، ولا تكون بمعنى دون مع الاسماء كقول العرب : هذه نملة وفوق النملة ، وهذا حمار وفوق الحمار قال : لا يجوز ان تكون فوق في هاتين المسألتين بمعنى دون لانه لم يتقدمه وصف ، وانما تقدمته النملة والحمار وهما اسمان ... » .

وهذا التعليل لجعل «فوق» من الاضداد خاطىء، فهذا اللفظ لا يكون بمعنى « دون » ابدا . وعبارة انه لاحمق وفوق الاحمق ، اي يزيد عنه حمقا ، لا دونه حمقا . فالمتكلم بهذه العبارة يريد منها المبالغة في وصفه بالحمق لا التقليل وكذا حال « فوق » مع جميع الصفات . اما مع الاسماء فاختلف فيها ، ولكننا نقول ايضا انها بمعنى « اعظم » لا غير . فمعنى الآية « ان الله عز وجل لا يستحيي ان يضرب الامثال بالبعوضة، وما هو اكبر منها حجما من الحشرات والحيوان ، مثل الذباب والطير والكلب والحمار ، التي استمد منها الامثلة في الآيات المختلفة . فاذا كان يقصد من البعوضة الضآلة والصغر ، فالمعنى انه سبحانه وتعالى لا يستحيي ان يضرب الامثال بالبعوضة وما هو اعظم منها صغرا وضآلة شان . فالتفسيران يبينان ان « فوق » لم تخرج عن معناها الاصلي ، وهو « اعظم » .

ونلحق بهذا النوع قول قطرب الذي يثير منا ابتسامة (88) : قالوا : ليال درع .: سود الصدور وبيض الاعجاز ، وليال درع : بيض الصدور وسود الاعجاز ، وشاة درعاء يا هذا : بيضاء المؤخر سوداء المقدم ، وشاة درعاء ـ سوداء المؤخر بيضاء المقدم » وقال ابن الانباري معلقا « وتابع قطربا على هذا جماعة من البصريين » .

فماذا كان يضيره لو فسر الليلة الدرعاء والشاة الدرعاء كما فعل عبد الفتاح بدوي بما اختلط بياضها وسوادها كانها تلبس درعا ، دون اشارة الى المقدمة والمؤخرة فاستراح من عدها في الاضداد . وما اكثر الاضداد التي من هذا النوع .

11 ـ الافعال ذات الدلالة الزمنية المختلفة ، قال قطرب (89) : « وقالوا فعل : لما وقع ، وفعل : لما لم يقع . وفي التفسير (منع منا الكيل) . اي بمنع منا . و (نادى اصحاب النار) اي ينادون . وقال الحطيئة :

شهد الحطيئة حين يلقى ربه
ان الوليد احق بالعذر

يريد : يشهد ، لانه قال : حين يلقي ربه ، ولم يلقه بعد .

« ويكون ايضا يفعل : لما وقع ، ولما لم يقع ، مثل قوله :

ولقد امر على اللئيم يسبني
فمضيت عنه وقلت لا يعنيني

كانه قال : ولقد مررت ، لانه قال : فمضيت عنه . وقال الآخر :

واني لآتيكم تشكر ما مضى
من الامر واستيجاب ما كان في غد

اي ما يكون في غد .. » .

وقال ايضا (90) : « ومن الاضداد ـ وهي آخره (يريد آخر الكتاب) ـ : اذ في القرآن لما مضى في معنى اذا ، واذ لما يستقبل ويجيء ايضا في معناها. وقال الله عز وجل (ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت) و (لو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم) المعنى يفزعون اذا ، ويوقفون ولم يوقفوا بعد . وقال ايضا : (واذ قال الله يا عيسى ابن مريم) وكان القول يكون في القيامة . فهذا لما لم يقع . وقال ابو النجم :

ثم جزاه الله عنا اذ جزى
جنات عدن في العلالي العلى

كانه قال : اذ يجزي ، لان هذا لم يقع بعد ... وقال اوس :

والحافظ الناس في الزمان اذا
لم يرسلوا تحت عائذ ربعا

وهبت الشمال البليل واذ
بات كميع الفتاة ملتفعا

---

(88) 142 . واورده ابو حاتم 132 ، وابن الانباري 165 ، وابو الطيب 271 . وابن الدهان 10 ، والصغاني 465 .
(89) 121 .
(90) 218 .

فقال : اذ واذا في معنى واحد ...» .

وارتضى ابو عبيدة هذا النوع من الاضداد ، وادخله في كتابه . قال ابن الانباري (91) : « قال أبو عبيدة : كان من الاضداد ، يقال : كان للماضي ، وكان للمستقبل . فاما كونها للماضي فلا يحتاج لها الى شاهد ، واما كونها للمستقبل فقول الشاعر :

فادركت من قد كان قبلي ولم ادع
لمن كان بعدي في القصائد مصنعا

اراد لمن يكون بعدي . قال وتكون كان زائدة ، كقوله تعالى (وكان الله غفورا رحيما) معناه والله غفور رحيم .

« قال ابو عبيدة : ويكون من الاضداد ايضا ، يقال : يكون للمستقبل ، يقال : يكون للماضي . فكونه للمستقبل لا يحتاج الى شاهد ، وكونه للماضي قول الصلتان يرثي المغيرة بن المهلب :

قل للقوافل والغزاة اذا غزوا
والباكرين وللمجد الرائح

ان السماحة والشجاعة ضمنا
قبرا بمرو على الطريق الواضح

فاذا مررت بقبره فاعقر به
كوم الجلاد وكل طرف سابح

وانضح جوانب قبره بدمائها
فلقد يكون اخادم وذبائح

اراد : فلقد كان .

« قال ابو بكر : والذى نذهب اليه ان « كان ويكون » لا يجوز ان يكونا على خلاف ظاهرهما ، الا اذا وضح المعنى . فلا يجوز لقائل ان يقول : كان عبد الله قائما ، بمعنى يكون عبد الله . وكذلك محال ان يقول : يكون عبد الله قائما ، بمعنى كان عبد الله . لان هذا ما لا يفهم ، ولا يقوم عليه دليل . فاذا انكشف المعنى حمل احد الفعلين على الآخر ، كقوله جل اسمه (كيف نكلم من كان في المهد صبيا) معناه : من يكون في المهد فكيف نكلمه ، فصلح الماضي في موضع المستقبل لبيان معناه . وانشد الفراء :

فمن كان لا ياتيك الا لحاجة
يروح لها حتى تقضى ويغتدي

فاني لآتيكم تشكر ما مضى
من الامر واستيجاب ما كان في غد

اراد ما يكون في غد . وقال الله عز ذكره (ونادى اصحاب الجنة اصحاب النار) فمعناه : وينادى ، لان المعنى مفهوم . وقال جل وعز : (يا ابانا منع منا الكيل) فقال بعض الناس : معناه يمنع منا . وقال الحطيئة :

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه
ان الوليد احق بالعذر

معناه : يشهد الحطيئة . وقول ابي عبيدة : كان زائدة في قوله تبارك وتعالى : (وكان الله غفورا رحيما) ليس بصحيح ، لانها لا تلغي مبتداة ناصبة للخبر ، وانما التاويل المبتدأ عند الفراء ، « وكائن الله غفورا رحيما » فصلح الماضي في موضع الدائم ، لان افعال الله جل وعز تخالف افعال العباد ، فافعال العباد تنقطع ، ورحمة الله جل وعز لا تنقطع وكذلك مغفرته وعلمه وحكمته . وقال غير الفراء : كان القوم شاهدوا الله مغفرة ورحمة وعلما وحكمة ، فقال الله جل وعز : وكان الله غفورا رحيما) اي لم يزل الله عز وجل على ما شاهدتم » (92) .

ويرى الباحثون البلاغيون ان هذه الافعال لم تخرج عن زمنها ، سواء ادلت على الماضي ام على المضارع ، فهي مختلفة بمعناها الاصيل . وانما استعمال المضارع في الماضي التفات ذهني ، كي يبرز القائل الصور والاحداث الماضية ، ويجلبها تحت سمع السامع والقارىء وبصرهما ، وكانها تحدث في الحاضر ، لتكون اشد تاثيرا فيه ، وانطباعا في ذهنه . واستعمال الماضي في الزمن الحاضر التفات ذهني ، كي يبرر القائل تاكده من حدوث هذه الافعال في المستقبل ، وتيقنه من ذلك ، وكانما قد وقعت حقا وانتهى الامر . اما استعمال الافعال الماضية والمضارعة في غير زمنها في بعض الشعر لغير غرض بلاغي ، فانما هو امر فرضته ـ في غالب الظن ـ الضرورة ، وليس بالتوسع اللغوي ولا الاضداد .

(91) 28 ـ 69 .
(92) أورده ابو حاتم 198 ، وابن الدهان 18 ، والصغاني 646 .

12 ـ عبارات التفاؤل والتطير ، قال قطرب (93) : ومنه ايضا : رجل اعور : للذاهب العين ، ورجل اعور : للحديد البصر . ويقال غراب اعور ، لحدة بصره ، وقال الشاعر : ـ في الدار تحجال الغراب الاعور ـ » وقال (94) : « وقالوا : البصير : الصحيح البصر ، والبصير : الاعمى . والآدم : الابيض ، والظبية الادماء : البيضاء . وآدم : اسود . وبعير آدم : حسن البياض شديد سواد المقلتين » .

ووجد هذا النوع عند مؤلفي الاضداد جميعا ، وعند غيرهم . قيل في اضداد الاصمعي (95) : « قال ابو زيد : الناهل في كلام العرب : العطشان ، والناهل : الذي قد شرب حتى روي ، قال النابغة :

الطاعن الطعنة يوم الوغى
ينهل منها الاسل الناهل

اي يروى منها العطشان. وقال الاصمعي : الانثى ناهلة ، والجميع نهال ، ورجل منهل : اي معطش ، وابل نهال : اي عطاش ، يتطيرون بها من العطش فيقولون : هذه ابل ناهلة .. » .

وقال الاصمعي (96) : « سموا المفازة مفعلة من فاز يفوز : اذا نجا ، وهي مهلكة ، قال الله جل ثناؤه : (فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب)اي منجاة. واصل المفازة مهلكة ، فتفاءلوا بالسلامة والفوز ، كقولهم للملدوغ سليم ، والسليم : المعافى » .

واضاف ابا عبيدة عبارات التطير ، اذ قيل في اضداد الاصمعي (97) : « قال ابو عبيدة يقال : فرسي شوهاء . اي حسنة ، ولا يقال للذكر هذا شيء . ويقال : لا تشوه علي، اي لا تقل: ما افصحك، فتصيبني بالعين . قال : وما سمعتها الا في هذين الحرفين ، واما القبح فيقال : قد شوه الله خلقه ، ورجل اشوه ، وامرأة شوهاء ، قال الحطيئة :

ارى ثم وجها شوه الله خلقه
فقبح من وجه وقبح حامله

وقال ابو دواد يذكر فرسا :

فهي شوهاء كالخوالق فوها
مستجاف يضل فيه الشكيم »

واورد ابو حاتم وغيره هذا اللفظ ايضا، وفسره الاول تفسيرا واضحا ، اذ قال : « قال ابو عبيدة : مهرة شوهاء : قبيحة وجميلة . قال ابو حاتم : لا اظنهم قالوا للجميلة : شوهاء الا مخافة ان تصيبها عين ، كما قالوا للغراب : اعور لحدة بصره » .

وهذا النوع من التعبير ليس من الاضداد ايضا ، لان قائله يريد ان يوهم السامع بحقيقة اللفظ لا ضده ، او يوهم نفسه ايضا ، فهو حين يصف الملدوغ بالسليم يريد ان يوهم نفسه وسامعيه بانه سليم معافى ولا خوف عليه . ولا يريد باي حال من الاحوال ان يتصوره ملدوغا متالما . وكذا الحال في بقية الالفاظ . وقد نقد عبد الفتاح بدوي هذا النوع فقال عنه : « اذا طبقنا بسائط علوم اللغة على امثلة هذه الطائفة وجدنا المعنى الثاني مجازيا للكلمة ، والاول هو المعنى الحقيقي ليس غير ، ومعنى الضدية لا يتحقق بين الحقيقة والمجاز لانهما لا يتساويان في فهمهما من الكلمة ، وانما الذي يفهم هو المعنى الحقيقي فقط ، ولا يفهم المعنى الثاني الا بقرينته ، وبالانتقال من المعنى الاول حتما ، فيفوت معنى الضدية .

13 ـ صيغة افعل قال قطرب (98) : « ومنه ايضا شكاني فلان فاشكيته : اذا شكاك فاعتنته ، وقد يقولون ايضا : فاشتكيته ، اي زدته شكوى . ويقال : شكا الي ما لقي فما اشكيته اشكاء ، وقال الراجز :

---

(93) 75 . وانظر ابن الانباري 269 ، وابا الطيب 508 ، وابن الدهان 16 .
(94) 76 ، 17 . وانظر ابا الطيب 63 ، 12 ، وابن الدهان 7 .
(95) 45 . واورده قطرب 55 ، وابو حاتم 135 ، وابن السكيت 318 ، وابن الانباري 65 ، وابو الطيب 637 ، وابن الدهان 20 ، والصغاني 680.
(96) 38 . واورده ابن السكيت 319 ، وابن الانباري 59 وابو الطيب 560 والصغاني 615 .
(97) واورده ابو حاتم 220 ، وابن الانباري 181 ، وابو الطيب 408 ، وابن الدهان 13 .
(98) 201 . واورده ابو حاتم 147 ، وابن السكيت 365 ، وابن الانباري 140 ، وابو الطيب 390 ، وابن الدهان 13 ، والصغاني 526 .

تمـد بالاعنـاق او تلويهـا
وتشتكـي لو اننـا نشكيـهـا »

وارتضى الاصمعي هذا النوع ، وادخلـه في الاضداد ، قال (99) : « اطلبت الرجل : اعطيتـه ما طلب ، واطلبته : الجاته الى ان يطلب ، ومنه قول ذي الرمة :

اضلـه راعيـا كلبيـة صـدرا
عن مطلب وطلى للاعناق تضطرب

يقول : بعد الماء منهم حتى الجاهم الى طلبه ، ويروى : ــ عن مطلب قارب وراده عصب ــ .

« ويقال : اشكيت الرجل : اذا اتيت اليه ما يشكو منه ، واشكيته : نزعت شكايته .

قال الراجز :

تمـد بالاعنـاق او تلويـهـا
وتشتكـي لو اننـا نشكيهـا »

والامر في هذا النوع يسـير ايضـا ، فالمعنى الاصلي فيـها التعديـة ، قـال الرضـى (100) : « المعنى الغالب في افعل تعديـة ما كان ثلاثيـا » ، فالمعنى الاصيل لاطنب واشكى جعله يطلب ويشكو . ولكن هذا الطالب ، وهذه الشكوى ، كانا سببا فـي الاستجابة ، اي ازالة اسباب الطلب والشكـوى . فارتبط السبب (الشكوى) والسبب (ازالتها) في ذهن العربي ، فربط بينهما في لغته ، واطلق عليهما لفظا واحدا . ولكن هذا اللفظ كان حقيقيا حيـن اطلقه على السبب ، وكان مجازيا حين اطلقـه على المسبب ..

14 ــ صيغة تفعل ، قـال قطـرب (101) : «ويقال : تاثم فلان : كره الاثم ، وهو من لفظ الاثم ، وحرج ايضا يحرج : اثم » .

وقال ابن الانباري (102) : « وتاثم حرف من الاضداد ، يقال قد تاثم الرجل اذا اتى ما فيه المأثم ، وتاثم : اذا تجنب المأثم ، كما يقال : قد تحوب الرجل ، اذا تجنب الحوب ، ولا يستعمل الحوب في المعنـى الآخر .. » وقال ايضا تحنث حزف من الاضـداد ؛ يقال : تحنث الرجل : اذا اتى الحنث ، وقد تحنث اذا تجنب الحنث ... » .

وقال الرضى 103 : « والاغلب في تفعل معنى صيرورة الشيء ذا اصله ، كتاهل وتاثم .. اي صار ذا اهل ، واثم ... فيكون مطاوع فعل الذي هـو لجعل الشيء ذا اصله اما حقيقة كما في البته فتالب واصلته وتاصل ، واما تقديرا كما في تاهل ، اذ لـم يستعمل اهل بمعنى جعل ذا اهل » . ومن الطبيعي ان هذه الصيغة تاتي من الافعال التي تصلح فيهـا المطاوعة ..

وقال الرضى ايضـا (104) ان تفعـل تاتـي للتكلف نحو تشجع وتحـلم ، وما هو بشجـاع ولا حليم . اي الصفة منتفية عنه مسلوبة منه، وللاتخاذ، ويشترط ان يكون اصل الصيغة اسما لا مصدرا مثل تردى وتوسد من الـرداء والوسادة . فهـذا المعنـى ياتي من الاشياء المادية لا المجردة . وتاتي ايضا للعمل المتكرر في مهلة نحو تجرع وتفهم . وكذلك بمعنـى استفعل في الطلب ، والاعتقاد في الشيء انه علـى صفة اصله ، نحو تنجزته واستعظمته ، ومن الواضح ان الفعل فيهما متعد لا لازم ، واخيرا تاتي للتجنب.

ولو وضعنا هذه المعاني المختلفة لصيغة «تفعل» بجوار معنى التجنب ، لظهر لنا الفـرق الجـلي . فالصيغة فيها جميعا ــ ماعدا التكلف ــ متعـدية لا لازمة ، بخلاف الحال في معنى التجنب . فالاختلاط والتشابه اذن بين التكلف والتجنب . والاثنان يفيدان السلب كما راينا ، لان متكلف الشيء يشعـر بعـدم وجوده فيه ، ولذلك يتكلفه . ولكن هناك امرا ذاتيا فيهما يفرق بينهما : ذلك هو الاصل المشتقة منـه الصيغة . فاذا كان الاصل مكروها فالصيغة للتجنب ، مثل تاثم وتحوب . واذا كان الاصل محبوبا فالصيغة

(99) 92 . واورده ابو حاتم 179 ، وابن السكيت 364 ، وابـن الانبـاري 48 ، وابو الطيـب 457 ، والصغاني 561 .
(100) شرح الشافية 1 ــ 86 .
(101) 90 .
(102) 105 . وانظر ابا الطيب 17 ، وابن الدهان 6 ، وابا حاتم 231 .
(103) 111 . واورده ابن السكيت 445 ، وابن الدهان 9 .
(104) شرح الشافية 1 : 104 ــ 107.

للتكلف والتظاهر مثل تكرم وتحلم وتشجع . ويؤكد لنا ذلك ان الالفاظ الستة التي قيل انها تأتي للتجنب ماخوذة من امور مستكرهة ، وهي : تحنث ، تأثم ، تحرج ، تحوب ، تنجس ، تهجد ، والهجود مستكره للاتقياء الذين يجمل بهم ان يقضوا الليل في العبادة وذكر الله ، ومن هنا وصفته بالاستكـــراه (105) ولما كان العرب يستعملون هذه الصيغة في احد المعاني كانوا يحرمون استعمالهـا في غيـره الا اذا كان لا يلتبس به ، ولذلـك قال الرضي (106) : « ليست هذه الزيادات قياسا مطردا ؛ فليس لك ان تقول في ظرف : أظرف ، وفي نصر : أنصـر ... وكذا لا تقول : نصر ولا دخل . وكذا في غيـر ذلـك مـن الابواب ، بل يحتاج في كل باب الى سماع استعمال اللفظ المعين ، وكذا استعماله في المعنى المعيـن ، فكما ان لفظ اذهب وادخل يحتاج فيه الى السماع فكذا معناه الذي هو النقـل مثلا ، فليـس لك ان تستعمل اذهب بمعنى ازال الذهـــاب ، أو عـرض للذهاب ، او نحو ذلك » . ويدلنا على ذلك انهم لـم يرووا لنا شواهد على استعمال هذه الالفاظ في غير التجنب . وصرح ابن الانباري بان تحوب للتجنب وحده .

15 ـ الصيغ المتشابهة في ظاهرها المتضـادة المعاني وفقا لاختلاف تصريفها واصلها .

قال قطرب (107) : « ومنه ايضا اردات الرجل: اعنته واردبته ، وقول الله جل ثناؤه (ردءا يصدقني) وقالوا ايضا : اردبته : اعنته ، واردبته : اهلكتـه » واظهر امثلة من هذا النوع صيغة اسمي الفاعل من « افتعل » و « انفعل » من الاجوف والمضاعـف . وقد زاد هذه الفئة ابو حاتم في اضداده ، قال (108): «ما كان من المعتل من بنات الياء والواو التي في موضع العين ، او من المضاعف على مفتعل ومفتعل ، لفظهما فيه سواء، كقولك : مختار ، للفاعل والمفعول به ، اخترت عبد الله من الرجال فانا مختاره وهو مختار، وكذلك المودان من الزين ، والمعتاض ، والمقتال والمعتد، الفاعل والمفعول به ، يقال : اعتد فـلان شيئـا ، فالرجل معتد ، والشيء معتد. وكذلك المنقاد، تقول : انقدت لك ، فانا منقاد (لك) ، وانت منقاد لك . والاصل : انا منقود لك ، وانت منقود لك . قال ابو حاتم : « والاصل في المختار اذا كان فاعلا : مختير، فكرهوا حركة الياء فاسكنوها ، ثم قلبوها الفا للفتحة قبلها . واما مختار مفتعل ، فالاصل : مختير ، الياء مفتوحة فكرهوا حركتهافاسكنوها ثم قلبوهـا الفا . وكذلك مكتال ، لانه من بنات الياء ، من كال يكيل ، فكرهوا حركة الياء فاسكنوها ، ثم قلبوها الفا لانفتاح ما قبلها . ومعتد ، اصلها معتدد ، بالكسر للفاعل، ومعتدد ، بالفتح للمفعول به ، فتحركت الـدالان ، فاسكنوا الاولى ثم ادغموها في الثانيـة فاستـوت اللفظتان » .

ورضي التوزي وابن الدهـان عن هذا النـوع فادخلاه في اضدادهما ، ولكنه لم يحظ بمثل هـذا القبول عند غيرهما ، فنقده ابو الطيب ـ كما رأينا ـ نقدا مرا ، ونفاه من الاضداد واكتفى غيره باهماله . وكشف عبد الفتاح بدوي عن رأيه في هذا النـوع في قوله : « ولا جرم ان دعوى التضاد في هذه الطائفة انما هو اعتبار للنغمة الصوتية فقط ، مع تناسـي حقيقة الكلمة ومقياسها فمختار الذي اصله مختيـر بكسر الياء لا يمكن ان يقال انه مختار الذي اصله مختيـر بفتحها . ومن ثم تكمن دعوى التضـاد في هذه الطائفة اشبه بالهذر منها بالحقائق العلمية ، لان التضاد انما يتصل بالمعاني لا بالانغام » .

ونسي هذا الكاتب ان التضاد يقوم على الانغام (اصوات الكلمات) ومعانيها في نفس الوقت ، وانه لو فرق بين الاثنين ما وجدت الاضداد ، وما وجـد بحث فيها . ونسي ان الصرفيين عندما يقولـون ان مختار اصلها مختير بكسر الياء اذا كانت اسم فاعل، او بفتحها اذا كانت اسم مفعول ، فكرهت حركة الياء فحذفت ، وقلبت الياء الفا ، لا يريـدون بذلـك ان العرب نطقوا بها ـ اول ما نطقوا ـ بالياء المحركة ، ثم مر عليهم طور نطقوا فيه بالياء الساكنة ، ثم في الاطوار الاخيرة بالالف . فحسهم اللغوي ، وذوقهم اصوات الالفاظ ، جعلاهم يستعملون اللفظ بالالف منذ الوهلة الاولى ، لانهم لم يستحسنوا غيرها ، حتى قبل وجوده . اما الصرفيون فيفترضون انه لو كانت اللفظة في اصلها على هذا البناء ، لاستمر بها

---

(105) انظر تاج العروس : حنث .
(106) شرح الشافية 1 ـ 84 .
(107) 185 .
(108) 175 .

التغيير الى ما صارت عليه . فكأنما اقام الكاتب رده على افتراضات . واعتبرها حقائق علمية ، فانهار نقده ، ولم يستطع الوقوف على قدميه . فالصيغتان في الحقيقة والواقع لا فرق بينهما ، ولم يكن يوجد فرق صوتي بينهما فقط ..

ولكننا ـ برغم انهيار نقده ـ لا نستطيع ان نلحق بهذا النوع من الالفاظ معنيين متضادين وانما نقول ان فيها تضادا في اتجاه المعنى ، لا المعنى نفسه . فهو مرة متجه الى الفاعل ، واخرى الى المفعول ، ولكنه هو هو في المرتين . فالاختيار لم يتغير ، وانما اتجه القائل ذات مرة الى فاعل هذا الحدث ، واتجه في المرة الثانية الى الذي وقع عليه الحدث . تلك هي الانواع التي اطلق عليها قطرب لفظ الاضداد ، وادخلها في كتابه . وقد ارتضاها اكثر المؤلفين كما رأينا ـ وزادوا عليها انواعا اخرى، فنتتبعها في كلامنا التالي ..

16 ـ الاضداد المجازية ، اي التي احد معنييها حقيقي ، والآخر مجازي . ويتمثل هذا النوع في صنفين من المجاز :

ا) فالصنف الاول : الالفاظ التي تطلق على الاناء وما فيه . وظهر هذا الصنف عند ابي عمرو بن العلاء . قيل في اضداد الاصمعي (109) : « قال ابو عمرو : الارة : النار ، والارة : الحفرة التي فيها النار » . ووجد عند ابي زيد ، قيل في اضداد الاصمعي (110) « الظعينة : المراة على البعير ، ويجوز أن تكون في بيتها . قال ابو زيد : الظعائن : الهوادج ، وانما سميت النساء ظعائن لانهن يكن فيها » . وارتضى ابو عبيدة هذا الصنف ، قيل في اضداد الاصمعي (111) : « قال ابو عبيدة : الكأس : الاناء الذي يشرب فيه، والكأس: ما فيه من الشراب» وسار على ذلك الاصمعي ، وروى في اضداده (112): « ويقال ناقة ثني : اذا ولدت بطنين ، وثنيها : ما في بطنها ..

وسار المتاخرون على هذا النهج ، الذي اختطه الرعيل الاول من اللغويين ، فاورد ابن السكيت وابو حاتم وابن الدهان والصغاني ما اورده السابقون عليهم من امثلة هذا الصنف من الاضداد . واورد ابو حاتم مثالا لم يورده من قبله ، قال (113) « المجمر : العود الذي يدخن به . والمحجر ايضا : الذي يوضع فيه الدخنة ، ومنه قول ابن احمر :

لم يعد ان فتق الشجاع لهاته
وافتر قارحه كلز المجمر

اراد انه اول ما بزل، فقارحه مثل الحديدة التي يازرها المجمر مثل الشعيرة او اصغر » .

ونستطيع ان نضع في هذا الصنف امثال ما جاء في اضداد الاصمعي (114) : « الراوية : البعير الذي يستقى عليه الماء ، يقال : رويت عليه اروى رية : اذا استقيت عليه ، وبه سميت الراوية التي عليه ، وانما هي المزادة ، قال ابو النجم :

تمشي من الردة مشي الحفل
مشي الروايا بالمزاد الاثقل

يقال : اردت الناقة ، وذلك اذا كانت عطشى ثم رويت فعطنت ، فينفتح ضرعها حتى تحسب انها حامل . »

وجعل عبد الفتاح بدوي هذا النوع والفاظ التفاؤل والتطير طائفة واحدة ، ووجه اليها النقد الذي ذكرته انفا . والحق ان المعنى لم يتغير ولم يتضاد في اي لفظ منها . وانما كان من سنن العرب اطلاق اللفظ الواحد على الشيء وما يلازمه ، لاتجاه الذهن الى الاثنين معا كلما ذكر احدهما . فكان اللفظ في اصالته يدل على احد المعنيين ثم انتقل مجازا

---

(109) 64 . واورده ابن السكيت 338 وابن الانباري 208 والصغاني 373 .
(110) 68 . واورده ابن السكيت 342 وابن الانباري 100 وابن الدهان 15 والصغاني 566 .
(111) 67 . واورده ابن السكيت 341 وابن الدهان 18 والصغاني 639 وجعله ابن الانباري من اشباه الاضداد.
(112) 65 . واورده ابن السكيت 339 وابن الانباري 211 وابو الطيب 119 وابن الدهان 8 والصغاني 416 .
(113) 273 . واورده ابن الدهان 8 .
(114) 69 . واورده ابن السكيت 343 وابن الانباري 101 وابن الدهان 11.

الى المعنى الثاني لما بينهما من تلازم في الواقع والذهن .

(ب) لفظ امة ، الذى زاده ابن الانباري ، اذ قال (115 : « الامة حرف من الاضداد يقال : الامة للواحد الصالح الذى يؤتم به ، ويكون علما في الخير ، كقوله عز وجل : (ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا) . ويقال : الامة الجماعة ، كقوله عز وجل : (وجد عليه امة من الناس يسقون). ويقال : الامة ايضا للواحد المنفرد بالدين..».

وواضح ان عد هذا اللفظ من الاضداد فيه تعسف . فالمعنى لم يتضاد في اطلاق اللفظ على المفرد او الجماعة . بل اني اعتقد انه ـ حين يطلق على الفرد ـ يحتفظ بدلالته على الجماعة . فالآية تصف ابراهيم عليه السلام بانه كان يعادل في دينه وورعه وتقواه الجماعة من الناس ، او انه جمع ايمان الامة وورعها وتقواها في شخصه ، او انه كان كل المؤمنين في وقته القانتين الحنفاء ولم يكن مؤمن غيره .

واضاف ابن الانباري الى ما سبق انواعا اخرى ، لست على يقين اكلها من عنده ام ينقلها عن غيره ، اذ لا دليل يميل بالمرء الى احد هذين الرأيين الا فيما اسنده الى غيره . وهاك هذه الانواع :

17 ـ الافعال المتعدية واللازمة بمعنى واحد . قال (116) : « زال حرف من الاضداد . يقال : قد زال المكروه عن فلان ، وقد زال الله المكروه عنه بمعنى ازال ... وخان حرف من الاضداد . يقال : خان النعيم فلانا ، وخان الدهر النعيم فلانا . فيكون النعيم فاعلا في حال ، ومفعولا في حال ، وخان غير متغير اللفظ .. وطل حرف من الاضداد. يقال : طل فلان دم فلان اذا ابطله ، وطل دم فلان : اذا بطل ، والاختيار طل دمه ..» ولا شك ان ابن درستويه كان يتحدث عن هذا النوع ، حين ذكر ان العرب تحذف احيانا حرف الجر للتخفف عند كثرة الاستعمال . فالاستعمال الاصيل للفعل كان باللزوم ثم حذفت منه اداة التعدية للخفة ..

18 ـ الحروف والادوات ، التى تدل على معان مختلفة مثل قوله (117) : « قال بعض اهل العلم : ان حرف من الاضداد اعني المكسورة الهمزة المسكنة بالنون ،، يقال : ان قام عبد الله ، يراد به: ما قام عبد الله . حكى الكسائي عن العرب : ان احد خيرا من احد الا بالعافية . فمعناه : ما احد . وحكى الكسائي ايضا من العرب : ان قائما ، على معنى ان انا قائما ، فترك الهمز من انا ، وادغمت نون ان في نون انا : فصارتا نونا مشددة كما قال الشاعر :

وترمينني بالطرف اي انت مذنب
وتقلينني لكن ايـاك لا اقلي

اراد : لكن انا اياك ، فترك الهمز وادغم . يقال ان قام عبد الله ، بمعنى : قد قام عبد الله . قال جماعة من العلماء في تفسير قوله جل وعز (فذكر ان نفعت الذكرى) معناه : فذكر قد نفعت الذكرى..» ومن هذا الصنف ايضا علاجه لهل ، وما ، واو ، وقلده فيها الصغاني وابن الدهان ولم يكن اعتبار هذه الحروف من الاضداد من ابتكاره انما هو مقلد فيها ، بدليل عبارة « قال بعض اهل العلم » ويبدو انه يريد بذلك الكسائي في هذه المادة . وحقيقة الامر في هذه الحروف والادوات انها بقايا الفاظ قديمة ، تخلفت لدينا من الاطوار الاولى من اللغة ، وان معظمها يتالف من عناصر اشارية مثل النون . فهذه المعاني المنسوبة اليها ، وصلت الينا من مراحل مختلفة من التطور اللغوي ، ولا يستطاع الحكم بان هذه الانواع من الالفاظ من الاضداد (118) .

وقد عقب عبد الفتاح بدوي على هذا النوع بقوله : « ودعوى التضاد في هذه الطائفة تهافت لان معنى اللفظ لا تضاد فيه لان الاوضاع مختلفة فما النافية ليست ما الموصولة حتى نعقد تضادا او غير تضاد بين المعنيين » .

19 ـ التصغير ، اضافه ابن الانباري في قوله (119) : « من الاضداد ايضا التصغير ، يدخل لمعنى التحقير ، ولمعنى التعظيم . فمن التعظيم قول

---

(115) 169 واورده ابن الدهان 6 ، والصغاني 381.
(116) 175 ـ 177 . واوردها ابن الدهان 12 ، 10 .
(117) 116 .
(118) انظر كتاب التطور النحوي للغة العربية لبرجشتراسر .
(119) 191 .

العرب : انا سر يسير هذا الامر ، اي انا اعلم الناس به . ومنه قول الانصاري يوم السقيفة : انا جديلها المحكك وعذيقها المرجب ، اي انا اعلم الناس بها . فالمراد من هذا التصغير التعظيم لا التحقير . والجديل : تصغير الجدل ، وهو الجذع ، واصل الشجرة . والمحكك : الذى يحتك به ، اراد انا يشتفى برايي كما تشتفي الابل اولات الجرب باحتكاكها بالجذع . والعذيق : تصغير العذق ، وهو الكباسة ، والشمراخ = العظيم . والمرجب : الذى يعمد لعظمه . وقال لبيد فى هذا المعنى :

وكل اناس سوف تدخل بينهم
دويهية تصفر منها الانامل

فصفر الداهية معظما لها لا محقرا لشانها ..».

واختلف العلماء فى التصغير ، قال الرضى (120) : « قيل : يجيء التصغير للتعظيم ، فيكون من باب الكناية ، يكنى بالصغر عن بلوغ الغاية فى العظم ، لان الشيء اذا جاوز حده جانس ضده ... واستدل لمجيء التصغير للاشارة الى معنى التعظيم بقوله :

وكل اناس سوف تدخل بينهم
دويهية تصفر منها الانامل

ورد بان تصغيرها على حسب احتقار الناس لها وتهاونهم بها ، اذ المراد بها الموت : اي يجيئهم ما يحتقرونه مع انه عظيم فى نفسه تصفر منه الانامل . واستدل ايضا بقوله :

فويق جبيل شاهق الراس لم تكن
لتبلغه حتى تكل وتعملا

ورد بتجوز كون المراد دقة الجبل وان كان طويلا ، واذا كان كذا فهو اشد لصعوده » .

نضيف الى ذلك ان تصغير اللفظ المفرد لا يفيد الا الصغر وما احاط به من ظلال وايحاءات كالرحمة والاشفاق والعطف والتدليل وما اليها . اما المعاني الاخرى التى تسبغ على الالفاظ المصغرة فتاتيها من تاليفها مع الفاظ اخرى فى سياق واحد واللفظ لا محالة يتغير معناه بعض الشيء عند التاليف : ضيقا واتساعا ، ليأتلف مع جيرانه ويتجه معها فى اتجاه واحد . ويجب ان تقوم دراسة الاضداد على الالفاظ المفردة ، لا المؤلفة فى عبارات .

20 ــ ما يحتمل معنيين متضادين من العبارات. واعتقد ان الذى دفع ابن الانباري الى الخوض فيه اتصاله بالقرءان . ونستطيع ان نصنفه الى ثلاث فئات ، هي :

أ ــ الآيات القرآنية ، وهي اكثر الفئات ورودا فى الكتاب ، واكبرها حظا من تناول المؤلف ، الذى يطيل فى بعضها ، ويورد اقوال المفسرين المختلفة . ومن اقصر الامثلة على ذلك قوله (121) : « ومما يفسر من كتاب الله جل وعز تفسيرين متضادين قوله جل اسمه : (وقال رجل مؤمن من ءال فرعون يكتم ايمانه) فيقول بعض المفسرين : الرجل المؤمن هو من ءال فرعون ، اي من امته وحيه ومن يدانيه فى النسب .. ويقول ءاخرون : الرجل المؤمن ليس من ءال فرعون ، انما يكتم ايمانه من ءال فرعون . وتقدير الآية عندهم : وقال رجل مؤمن يكتم ايمانه من ءال فرعون » .

ب ــ الشعر ، وهو ان كان اقل من الآيات عددا الا ان حظه من التناول لا يقل عن حظ الآيات طولا . ومثاله قوله (122) : « ومما يفسر من الشعر تفسيرين متضادين قول قيس ابن الخطيم :

اتعرف رسما كاطراد المذاهب
لعمرة وحشا غير موقف راكب

ديار التى كادت ونحن على منى
تحل بنا لولا نجاء الركائب

قال ابن السكيت : اراد بقوله : غير موقف راكب، الا ان راكبا وقف ، يعني نفسه . وقال غيره : لم يرد الشاعر هذا ، ولكنه ذهب الى ان «غيرا» نعت للرسم ، تاويله : اتعرف رسما غير موقف راكب ، اي ليس بموقف للراكب لاندراس الآثار منه وامحاء معالمه فمتى يصر به الراكب من بعد ذعر منه ، فلم يقف به .. » .

---

(120) شرح الشافية 1 : 191 .
(121) 292 . وانظر 167 ــ 8 ، 196 ، 223 ، 234 ، 237 ، 265 ، 270 ، 272 ــ 3 ، 297 ، 299 ، 333 ، 341 ، 353 ــ 57 .
(122) 183 . وانظر 197 ، 219 ، 238 .

ج ـ الاقوال . وهي تعادل الشعر كثرة ، ويتفاوت حظها من طول التناول . واقصر امثلتها قوله (123) : « ومن الاضداد ايضاً : قولهم : اقسمت ان تذهب معنا ، يحتمل معنيين : احدهما اقسمت الا تذهب معنا ، والآخر أن تذهب معنا . وكذلك نشدتك الله أن تذهب معنا ، يحتمل المعنيين جميعا ... » .

ووضع هذه العبارات في الاضداد غريب ، انكره بحق المستشرقون وعبد الفتاح بدوي . فلا يوجد لفظ معين يمكن أن يلصق به معنيان متضادان. وانما يستفاد المعنيان من السياق والقرائن .

21 ـ المقلوب من العبارات، بان ينسب الحدث الى غير فاعله . وامثلته نادرة عنده كقوله (124) : « ويقال تهيبت الطريق وتهيبني الطريق بمعنى ، وهذا من الاضداد .. قال ابو بكر : وهذا عندي مما يقلب لان اللبس يؤمن في مثله ، فيقال : تهيبني الطريق ، لانه معلوم ان الطريق لا تتهيب احدا ..» .

ووجد ابن الانباري مجموعة من الالفاظ تقارب الاضداد ، ولكنها لا تماثلها كل المماثلة ، فميزها عنها بعض التمييز ، وسماها احيانا « اشباه الاضداد » واحيانا « ما يجري مجرى الاضداد » ونجد تحت الاسم الاول الاصناف التالية :

1 ـ الالفاظ ذوات المعاني الحقيقية والمجازية قال (125) : « سمع حرف من الحروف التي تشبه الاضداد يكون بمعنى وقع الكلام في اذنه او قلبه ، ويكون سمع بمعنى اجاب . من ذلك قولهم : سمع الله لمن حمده ، معناه أجاب الله من حمده . ومن هذا قوله عز وجل : (اجيب دعوة الداعي اذا دعان) قال بعض اهل العلم : معناه اسمع دعاء الداعي اذا دعان . وقالوا : يكون سمع بمعنى اجاب ، واجاب بمعنى سمع ، كقولك للرجل : دعوت من لا يجيب ، اي دعوت من لا يسمع ، وانشدنا ابو العباس :

دعوت الله حتى خفت ان لا
يكون الله يسمع ما اقول

اراد يجيب ما اقول . وقال جماعة من المفسرين: معنى الآية أجيب دعوة الداع اذا دعان فيما الخيرة للداعي فيه ، لانه يقصد بالدعاء قصد صلاح شانه ، فاذا سئل ما لا صلاح له فيه فان صرفه عنه اجابة له في الحقيقة » . والحق ان الاجابة معنى مجازي لسمع ، لان السمع اول مرحلة من مراحل اجابة الطلب او الدعاء ، أو هي نتيجة السمع عند الرضى. فلا اجابة بدون سماع . ولما كان الامران بهذا الارتباط صح توسيع معنى السمع والاجابة بحيث تشمل المراحل كلها . فهذا الاستعمال توسع وتجوز لا تضاد . ولا شبهه . ويبدو من عبارة ان الانباري انه ينقل كلام بعض الناس قبله . ونضع في هذا الصنف لفظي كأس وطبخ الذي سبق الكلام عليهما . واعتبرهما ابن الانباري من اشباه الاضداد .

2 ـ الالوان . قال (126) : «ومما يتبه حروف الاضداد الاحمر ، يقال : احمر للاحمر . ويقال رجل احمر اذا كان ابيض . قال ابو عمرو بن العلاء : اكثر ما تقول العرب في الناس اسود واحمر .

قال : وهو اكثر من قولهم اسود وابيض، وانشد ابن السكيت لاوس بن حجر :

واحمر جعدا عليه النسور
وفي ضبنة ثعلب منكسر
وفي صدره مثل جيب الفتا
ة تشهق حينا وحينا تهر

قوله : في ضبنه : معناه وفي ابطه . والثعلب : ما دخل من طرف الرمح في جبة السنان . وقوله : تشهق حينا : شهيق الطعنة ان تدخل الريح فيها فتصوت . وتهر : معناه تقبقب » . وكذا قال عن الاصفر والاخضر والاسود . ولكن هذه الالفاظ جميعا لا تضاد ولا شبهه فيها ، وانما الالوان نفسها لا تكون خالصة ، فبعضها اصفر مائل الى السواد ، وبعضها ابيض يشوبه شيء من حمرة ، وبعضها اخضر يغلب عليه السواد ... وهكذا . ولم تضع العرب الفاظا خاصة لجميع هذه الالوان الفرعية ، اكتفاء بالرئيسية منها ، فاصبح اللفظ الواحد يطلق على الدرجات المختلفة من اللون ، فظن انه من الاضداد. وادخل الصغاني وابن الدهان هذه الالوان كلها في اضدادهما ، كما ادخل قطرب فيها الاصفر .

---

(123) 200 ـ 202 . وانظر 159 ، 160 ، 206.
(124) 56 .
(125) 80 . واورده ابن الدهان 12 ، وعقب عليه بان فيه نظرا .
(126) 231 .

3 ـ عبارات الاستهزاء . قال (127) : « ومما يشبه الاضداد قولهم في الاستهزاء : مرحبا بفلان ، اذا أحبوا قربه ، ومرحبا به اذا لم يريدوا قربه . فمعناه على هذا التأويل : لا مرحبا به . فالمعنى الاول اشهر واعرف من ان يحتاج فيه الى شاهد . والمعنى الثاني شاهده :

مرحبا بالذي اذا جاء الـ
ـخير أو غاب غاب عن كل خير

هذا هجاء وذم ، معناه مرحبا بالذي اذا جاء غاب عن كل خير ، جاء الخير او غاب . وتاويل مرحبا : لا مرحبا به ....

« ومما يشبه الاضداد ايضا قولهم للعاقل : يا عاقل ، وللجاهل اذا استهزؤوا به : يا عاقل ، يريدون يا عاقل عند نفسك ، قال الله عز وجل : (ثم صبوا فوق راسه من عذاب الحميم ، ذق انك انت العزيز الكريم) معناه عند نفسك ، فاما عندنا فلست عزيزا ولا كريما . وكذلك قوله عز وجل فيما حكاه عن مخاطبة قوم شعيب شعيبا بقولهم : « انك لانت الحليم الرشيد » (ارادوا انت الحليم الرشيد عند نفسك) قال الشاعر :

فقلت لسيدنا يا حليـ
ـم انك لم تاس اسوا رفيقا

اراد يا حليم عند نفسك فانما عندي فانت سفيه » .

وهذه العبارات لا تضاد ولا ما يشبهه فيها ، فالمتكلم حين وصف الجاهل بالعاقل لم يقصد قط ان يصفه بحقيقته وهي الجهل ، بل اراد وصفه بالعقل . واعني بذلك انه لم يقصد قط ان يصفه بحقيقته وهي الجهل ، بل اراد وصفه بالعقل . واعني بذلك انه لم يرد ان نتصور انسانا جاهلا بقوله « يا عاقل » ، بل ارادنا أن نتصور انسانا عاقلا ، ونستحضر هذه الصورة امامنا حتى نمتلىء احساسا بها ، ثم ننظر الى هذا الجاهل ونرى مدى انطباق الصورة عليه . ومن المفارقة في الصورتين يأتي الاستهزاء والضحك . ولو كان يريد منا ان نتصور انسانا جاهلا بقوله هذا ، ما جعلنا نضحك ، لان الصورتين ستنطبقان : ولا تبرز المفارقة بينهما ..

اما الصنف الثاني ، او ما يجري مجرى الاضداد عنده ، فهو الاعلام التي يختلف في عروبتها او اعجميتها . قال (128) : « ومما يفسر من كتاب الله جل وعز تفسيرين متضادين قوله عز وجل : « طه » . قال بعض المفسرين : معناه ، يا رجل ، بالسريانية . وقال غيره : معناه : يا رجل ، بلغة عك ، وزعم ان عكا يقولون للرجل : طه ، وكذلك للرجال والنسوة ، وانشد :

ان السفاه كطه من خليقتكم
لا قدس الله اخلاق الملاميـن

وقال الاخفش : طه علامة لانقطاع السورة من السورة التي قبلها . وقال الفراء : طه بمنزلة الم ، ابتدا الله جل وعز بها مكتفيا بها من جميع حروف المعجم ، ليدل العرب على انه انزل القرآن على نبيه باللغة التي يعلمونها والالفاظ التي يعقلونها كي لا تكون لهم على الله حجة . » .

وقال (129) : « ومنها ايضا يعقوب يكون عربيا لان العرب تسمي ذكر الحجل يعقوبا ويجمعونه يعاقيب ، قال سلامة بن جندل :

اودى الشباب حميدا ذو التعاجيب
اودى وذلك شأو غير مطلوب

ولى حثيثا وهذا الشيب يطلبه
لو كان يدركه ركض اليعاقيب

واجرى نفس القول على اسحاق ، وعلى لفظ من غير الاعلام ، هو مشكاة ، التي قيل انها حبشية، وقيل عربية . ولا شك ان الاساس الذي اقام عليه ابن الانباري القول بتضاد هذه الاعلام او جريانها مجرى الاضداد منهار لا قائمة له ، ولا يحتاج الى تفنيد ..

---

(127) 156 ، 157 . واوردهما ابن الدهان 11 ، 16 .
(128) 314 .
(129) 337 .

تحليل ونقد

الأستاذ محمد ابراهيم الكتاني
الرباط

كتاب (الاضداد في اللغة) تاليف حسين محمد ، من الجمهورية العربية المتحدة تناول فيه بالدرس العميق الهادىء الرزين المستوعب ظاهرة الاضداد في اللغة العربية من جوانبها المختلفة ، واولى عناية خاصة لدراسة مواقف المؤلفين من الاضداد قديما وحديثا خصوصا المثبتين والنافين لها . ويقع في 129 ص ، وقد جعله في مقدمة وبابين وخاتمة، فاستعرض في المقدمة نشاة الدراسات اللغوية في اللغة العربية ، مؤكدا ان اللغويين تنبهوا للاضداد في القرن الثاني فشرعوا يلتقطونها ، ويشيرون اليها ويتحدثون عنها .

وكانت الثمرة الطبيعية اول تدوين للاضداد في اللغة العربية ، وكانت هذه الثمرة الاولى باكورة عدة ثمار جمعت الاضداد ودرستها ، وحول هذا الثمار تدور الصفحات الآتية : متاملين ، متذوقين ، ومقدرين .

وتناول الباب الاول الاختلاف في مفهوم الاضداد وفيه خمسة فصول : تعريف الاضداد ، والاختلاف في وجود الاضداد ، واصل الاضداد ، وشروط الاضداد ، وانواع الاضداد .

فذكر في فصل تعريف الاضداد ان قطربا ذكر ان من اللفظ الواحد الذى يجيء على معنيين فصاعدا ما يكون متضادا في شيء وضده ، وتابعه ابن الانباري، وابوحاتم السجستاني .

وكان ابو الطيب اللغوي هو الذي ازال كل ابهام عن اللفظ فقال : وضد الشيء ما نافاه ، وليس كل ما خالف الشيء ضدا له .

وذكر في الفصل الثاني أن موقف اللغويين القدماء من هذا النوع من الالفاظ اختلف ، فارتضى جماعة منهم وجودها ، واعترف بها ، وتحدث عما يندرج تحتها من الفاظ ، وعللها احيانا ، وكانت هذه الجماعة اسبق في الظهور من معارضتها اذ كان منها ابو عمرو بن العلاء ، والخليل بن احمد ، ويونس بن حبيب ، وتلاميذهم ، واستمر المنتسبون اليها في البقاء الى يومنا هذا .

اما الجماعة الاخرى فاعترضت على الاضداد وانكرتها ، و نعرف من انتمى اليها من القدماء غير ابن درستويه ولا تصح نسبة ذلك لثعلب ، وكثر اتباعها في العصر الحديث ، فكان منهم عبد الفتاح بدوي كاتب مقالة (ضدان) في دائرة المعارف الاسلامية (مادة اضداد) وكان منهم اغلب المستشرقين الذين كتبوا المقالات والرسائل الصغيرة في رفض الاضداد .

وقد دافع القائلون بها عن وجودها وردوا على ما قاله المعارضون ولعل اهم من قام بهذا العمل احمد ابن فارس ، وابن سيده ، ومحمد بن القاسم الانباري ، فاقام ابن سيده دفاعه على الجدل العقلي، واعتمد ابن فارس في احد رأييه على طبيعة اللغة

العربية . وفى الراي الثاني على الرواة الذين نقلوا لنا الاضداد ، وكان ابن فارس اكثر توفيقا فى دفاعه عن الاضداد واقرب الى طبيعة اللغة وما تفرضه من مناهج ويؤسفنا الا نعثر على كتابه الذى الفه فى الدفاع عن الاضداد .

واما ابن الانباري فقد تناول واحدا من آراء المنكرين ورد عليه بل لعله اهم راي لهم .

ولما كانت كتب المعارضين من القدماء، لم تصل الينا كنا مضطرين للاعتماد على حكايات غيرهم عنهم .

وقد اجملت دائرة المعارف الاسلامية والدكتور منصور فهمي الادلة التى اعتمد عليها المستشرقون فى انكار الاضداد ...

وفى اصل الاضداد ، ذكر ان اللغويين منذ تنبهوا الى الاضداد واختلفوا فيها وهم فى محاولة دائبة لتعليلها والكشف عن نشاتها وكيف وجدت فى اللغة ، واشترك فى هذه المحاولة من اتفقت اراؤهم ومن اختلفت ، ومن اعترفوا بها ومن رفضوها والقدماء والمحدثون والعرب والمستعربون.

واختلفت الطرق التى سلكها العرب وغير العرب فى دراسة هذه الظاهرة اللغوية فى كثير من الاحيان ، فقد اوغل بعض المستشرقين فى تاريخ البشرية وارجع ظاهرة الاضداد الى العصور القديمة عندما كان العقل البشري فى سذاجته فلم يكن يفطن لما يحتويه من تناقض ، وتوسط بعضهم فى الايغال فلم يرجع الى التاريخ البشري واقتصر على التاريخ العربي القديم . وان العرب اقترضوا بعض هذه الاضداد من اللغات المجاورة لهم ولما كان معناها الاصلي قد تختلف ايحاءاته فقد ادى ذلك الى التضاد فى اللغة .

واقتصد بعضهم الآخر ونظر فى تاريخ الجماعة الواحدة فوجد فيه من التطور ما يؤدي الى التضاد دون استعارة من الخارج .

ولم يلتفت فريق الى التاريخ وبحث عن العلة فيمن يراه من جماعة وفرد وما يسودهما من ظواهر ذات تاثير فى اللغة فذهب الى ان بعض المعاني المتضادة يرتبط بعضها ببعض وتتداعى فى الذهن فتؤدي الى التضاد .

اما اللغويون العرب فقصروا جهدهم على الالفاظ العربية ولم يبعدوا عنها لا تاريخا ولا لغة ولا اجتماعا، وحاولوا ان يتبينوا اصولها ونشاتها ومسالكها فى اللغة العربية نفسها ، ويؤدي بنا التامل الدقيق فى العمل التى اوردها الدارسون للغة العربية نفسها دون حاجة الى الفلسفة او للعثور على نظرية عامة او الابعاد فى مجاهل التفكير البشري الى ان اهم ما قالوه من علل واخطره هو **المعنى الاصلي للالفاظ** فنحن فى حاجة الى اعادة النظر فى هذه الالفاظ وفيما ذكره لها اللغويون من معان وفى حاجة الى محاولة استكشاف الطريق الى المعنى الاصلي الحق لها ، الذى لا يابه بما حولها من ملابسات ، ولا بما يرتبط من اشواط، سائر فى طرق معتدلة آنا ومعوجة آونة ، فان وصلنا الى ذلك المعنى غمرنا الضوء من كل مكان ، واستبان لنا تطور اللفظ ، وما اكتسبه من معان ودلالات ، وما احيط به من ظلال ، جعلته مشوبا بالغموض احيانا ، وعرضة للخطا احيانا اخرى.

واما بقية العلل فهي ارتياد لبعض الطرق التى سلكها اللفظ ليصل الى درجة التضاد ، مثل اللغات، والمجاز والحذف للتخفيف وما اليها من امور .

كذلك يؤدي بنا التامل الدقيق فى الاقوال السالفة الى نتيجة قد تبدو غريبة ولكنها حقيقة واقعة ، اعني انه **لم يوجد من اللغويين** على قدر ما نستطيع الحكم من خلال ما عندنا من معلومات**من ينكر وجود الاضداد فى اللغة العربية الفصحى ، فمن رفضوا اضدادا رفضوا اصالتها** ، اريد انهم رفضوا ان تكون وضعت اصلا للمعنيين المتضادين ، ولكن ما خضعت له من تطور بالتوسع او المجاز او الحذف ادى الى وجود لفظين متماثلين فى كل شيء بحيث لا يمكن ان نفرق بينهما ونعدها لفظين متمايزين غير ان معنييهما متضادان ، كذلك ادى انصباب الروافد القبلية دون تمييز بينها فى تيار العربية الفصحى الى ما اشبه الظاهرة السابقة **فالفصحى بصورتها الراهنة تحتوي على هذا النوع من الالفاظ (الذي نسميه الاضداد) باعتراف جميع القدماء** ، وان اختلفت اصول هذه الاضداد والطرق التى سلكتها الى التيار الحالي .

ويؤدي بنا ايضا الى نتيجة اخرى اجمع عليها المنكرون والمؤيدون هي قلة الاضداد فى اللغة العربية الفصحى ...

وفى شروط الاضداد ذكر انه اذا كان من انكر الاضداد اطلق قوله فيها ثم اضطر الى التراجع قليلا عنه عندما استقصى النظر فى اللغة ، او احتوى قوله على ما يوميء الى تراجع ، فاننا نجد الظاهرة نفسها عند المؤيدين لوجود الاضداد او بعضه .

لقد كان فى وهم المؤلفين الاولين ان الاضداد الفاظ تلائل فى اللغة فحاولوا جمعها وابرازها وتحت اثر من هذا الاحساس ومن هذه الغاية جمعوا مع الاضداد الفاظا كثيرة عدوها اضدادا وهي واهنة الصلة بها وكان اكثر المؤلفين وقوعا تحت هذا الاثر قطرب اول من كتب عن الاضداد ، فاضطر من جاء بعده الى ادخال ما قاله فى كتابه ، كيلا يتهم بانه فاته من الاضداد شيء .

ولكن اهل القرنين الثالث والرابع كانوا قد اخذوا يتخصصون من هذا الاثر ، بعد ان راوا ما راوا امامهم من قبل كتب الاضداد ، فاخذوا يعيدون النظر فيها ، وفى اضداد قطرب خاصة ، وينقدون منها كثيرا .

وعند تتبع هذا النقد استخلص المؤلف كثيرا من الشروط يجب ان تتوفر فى اللفظ حتى يدخلوه فى الاضداد ، ولكن الامر المؤسف ان هذه الشروط اهملها واضعوها انفسهم ، ولم يطبقوها على كثير من الالفاظ التي دونوها فى كتبهم .

وبالرغم من ذلك تتبع المؤلف هذه الشروط لاهميتها فى توضيح صورة الاضداد فى اذهانهم ، وان لم تتحقق كل التحقق فى كتبهم .

واهم مؤلف يكثر عنده هذا النوع من الاقوال هو ابو بكر محمد ابن القاسم الانباري ونستطيع ان نقول انه يضع الشروط التالية فى اللفظ ليعده من الاضداد :

1 ـ ان تكون صيغة اللفظ فى المعنيين المتضادين واحدة ، اى ان يكون المعنيان المتضادان لفعلين او اسمين او صفتين ، وكل منهما على صيغة واحدة ، ولا يحكم بالتضاد فيما شذ عن ذلك .

2 ـ كذلك اشترط ان يكون للصيغة الواحدة معنيان متضادان لا يمكن ردهما الى معنى واحد .

3 ـ واشترط ابن الانباري ايضا ان يكون المعنيان فصيحين لا من ابتكار العامة .

4 ـ واشترط ان يكون المعنيان معروفين استعملهما العرب فى حوارهم .. ويبدو ان ابا الطيب يتفق مع ابن الانباري فى هذا الراي ايضا ، وان لم يعلن ذلك صراحة .

5 ـ واشترط ابو الطيب أن لا يكون المعنى الثاني مجازيا .

6 ـ واشترط فى المعنى ان لا يكون مقلوبا او مزالا عن جهته .

7 ـ وانفرد ابو الطيب ـ اللغوي باخراج مجموعة من الالفاظ تتضاد فى معانيها ، وتتماثل فى صورتها ولكن هذه الصورة المتماثلة فى ظاهرها مختلفة فى حقيقتها اذ تختلف العلل الصرفية التى وصلت بها الى صورتها .

8 ـ بل ذهب الى ابعد من ذلك واخرج من الاضداد ما اختلفت صيغ المجرد والمصدر منه من الافعال . ثم استخلص من هذا غموض صورة الاضداد فى ذهن قطرب ، او عدم وجود حدود لها ، واخذها فى الموضوع والجلاء ، والتحدد على مر الزمان فكانت اللمحات الاولى منها عند ابي حاتم السجستاني ، ثم كان كمال التحدد والبروز عند ابن الانباري وابي الطيب .

ويعتبر الفصل الخامس فى (انواع الاضداد) اطول فصول الباب الاول ، اذ يستغرق احدى وثلاثين صفحة . وبالرغم من احساس العلماء بأن الاضداد فئات عدة ، فان المؤلف لم يجد بين القدماء من حاول ان يصنفها قاصرا او شاملا ، وبالرغم من أن المحدثين اضطروا الى الفصل بين انواع منها ليسهل عليهم رفضها او تعليلها فانهم لم يرتقوا بهذا الفصل الى ان يكون تصنيفا .

والرجل الوحيد الذى حاول شيئا من ذلك هو عبد الفتاح بدوي ، ويبدو انه اراد ان يعوض ما فات اللغويين فاعطانا تقسيمين ، اما الاول فصغير ومحكم ، ويقوم على اساس نحوي ، فقد جعل الاضداد اربعة انواع .

وكان التقسيم الثاني واسعا ينظر الى عدة اسس بحيث تغيب عن النظر الذى يريد ان يصل اليها فالاضداد فى هذا التقسيم تقع فى عشر طوائف .

وبعد ان ذكرها المؤلف ذكر انه يعني كثيرا بالتقسيمات النظرية وان كان لن يهملها كل الاهمال

وانه سيجعل همه كله في تتبع الانواع المختلفة التي أدخلها مؤلفو الاضداد فعلا في كتبهم اذ اختلف النظر والتطبيق عندهم ، وانه سيبدأ باول مؤلف : قطرب اذ توسع في تصور الاضداد اكثر من غيره، حتى اضطر من جاء بعده الى نقضه ورفض كثير منها ، وانه سيتبع كل صنف منها بما وجه اليه من نقد .

قد وصلت الاصناف عنده الى ستة عشر صنفا واضاف ابن الانباري اليها خمسة انواع اخرى فصارت واحدا وعشرين نوعا ، قبل مؤلفنا منها نوعا واحدا هو ما سماه بالاضداد الحقيقية وبين في العشرين الباقية كلها انها ليست من الاضداد في شيء .

ووجد ابن الانباري مجموعة من الالفاظ تقارب الاضداد ولكنها لا تماثلها كل المماثلة ، فميزها عنها بعض التمييز ، وسماها احيانا (اشباه الاضداد).

وتناول الباب الثاني جمع الاضداد وتدوينها وفيه اربعة فصول : اسباب هذا الجمع واهدافه . وبواكير جمع الاضداد ، وكتب في الاضداد وفصول في الاضداد .

وقد لخص الفصل الاول في اخره فذكر ان **الدافع الذي حمل اللغويين على تدوين الاضداد تغير من جيل الى آخر** ، فقد بدأ هواية في القرن الثاني ، ثم صار تقوى تحمل على ازالة ما قد يعتري بعض الآيات من غموض في القرن الثالث ، ثم تحول الى رغبة في الدفاع عن العرب ولغتهم امام الدعاوي الشعوبية في اوائل القرن الرابع وحب المعرفة المجردة في ذلك القرن ايضا ، وانتهى الى الرغبة في متع الباحثين عن المحسنات اللفظية ذخيرة لغوية جديدة في العصور المتاخرة .

وتغير الهدف الذي سعى اليه كل من هؤلاء المؤلفين : فبينما كان اولهم قطرب يسعى الى استقصاء الاضداد من نهر اللغة مباشرة ، استكثر هذا ابو حاتم ووجد الا سبيل اليه واقتصر على التطلع الى جمع ما امكن ، ثم سعى ابن الانباري الى الجمع ولكن من الكتب المؤلفة قبله ، واضافة بعض الشواهد للعلل ، وسعى ابو الطيب الى ذلك مع التمحيص الجيد ، ثم كان الهدف الاختصار والجمع معا .

وفي **بواكير جمع الاضداد** ، ذكر ان **الخليل** رحمه الله كان **بعد الاضداد من عجائب الكلام ووسع العربية** قد اشار الى قدر منها في (العين) وروى واحد من الاضداد عن يوسف بن حبيب ، ورويت ثلاثة عن الكسائي وما نسب الى الفراء لا يتعدى الضد او الاثنين .

وتكثر الاضداد بعض الشيء عند ابي عمرو الشيباني ثم تكثر وتتنوع عند ابي زيد الانصاري ، وبقي بعض الناس يوردون اضدادا بعد عهد التاليف فيها ، دون ان يشاركوا هم في تدوينها في كتب خاصة ، مثل ابن الاعرابي .

ويعتبر الفصل الثالث من الباب الثاني الخاص بكتب الاضداد اطول فصول الكتاب اذ انه يقع في 52 صفحة .

فقد عثر في اثناء بحثه عن الاضداد على اسماء ثلاثة وعشرين كتابا فيها ، ثم اورد اسماءها مرتبة بحسب وفيات مؤلفيها ، مع بيان المفقود والموجود منها والمخطوط والمطبوع .

ثم تصدى للكلام على كل واحد منها بخصوصه، واصفا دارسا مقارنا ناقدا . في اناة وتثبت وانصاف .

وفي الفصل الرابع والاخير عن فصول في الاضداد ، درس ما ورد في الغريب المصنف لابي عبيد القاسم بن سلام **وادب الكاتب** لابن قتيبة ، **والمخصص** لابن سيده ، **والمزهر** للسيوطي .

ولخص في (الخاتمة) النتائج التي توصل اليها في الكتاب .

الاضداد ظاهرة غريبة :

فالذهن ينكرها للوهلة الاولى ، ويابى ان يصدق وجود لفظ واحد يدل على معنى وضده ، وعلى هذا الاساس انكرها من انكرها ، ولكن هذا الاساس لم يمنع ان يومن بها جماعات من القدماء وقلة من المحدثين ، وكانت الفئة الاخيرة او افراد منها هي التي حاولت ان تعلل هذه الظاهرة الغريبة ولعل ظاهرة لغوية اخرى لم تحط بمثل سوء التفاهم الذي احيطت به ظاهرة الاضداد ، فمنذ عهد مبكر اختلف اللغويون فيها ، وما زالوا مختلفين ، فاذا تاملنا ما دار بينهم من نقاش وجدنا الفاظهم وعباراتهم تتنافر وتتصادم ، والمؤدى الاخير لما يقولون واحدا ، فهم يتجادلون حول تصورين لا تصور واحد . وفي

مجالين لا مجال واحد ولو تحدثوا عن تصور واحد ، وفي داخل مجال واحد ، لهذا كثير من الخصومة وبطل كثير من الادلة ، وربما ضاع الخلاف .

فقد كان المنكرون للاضداد ينظرون في مجال ضيق لا يتجاوز اية لهجة قبلية على حدتها ، ولما لم يعثروا على الاضداد في داخل اللهجة الواحدة انكروا الاضداد برمتها وابوا ان يسموا بالاضداد ما جاء دالا على معان متضادة في لهجات قبلية مختلفة ، وان ضمتها اللغة العربية بعد .

وقصر المنكرون تصورهم على الالفاظ في وضعها الاول واعلنوا انهم لم يجدوا لفظا واحدا وضعه العرب حين وضعوه الا على معنيين متضادين ، اما اذا كان الاستعمال او التبدلات اللغوية او التغييرات الصرفية قد ادت بعد ذلك الى ان تزول الفوارق بين بعض الالفاظ ذوات المعاني المتضادة فتبدو الآن في صورة واحدة ومتضادة المعنى ، فليس ذلك من الاضداد عندهم .. ونستطيع ان نقول : ان كل لفظ توفر له سبب ما فادى به الى الدلالة على معنيين متضادين يابى المنكرون ان يسموه ضدا ، مهما كان السبب : لهجات قبلية او حذفا ، او تخفيفا ، او ابدالا ، او اعلالا ، او مجازا ، او تفاؤلا وتطيرا ، او ما شاكل ذلك من امور ، وانما الضد عندهم يجب الا يكون هناك سبب في دلالته هذه ، بل وضع اصلا لها .

اما المؤيدون للاضداد فوسعوا نظريتهم ومجالهم : نظروا الى اللغة العربية في شمولها وعمومها فلفت نظرهم وجود هذه الفئة من الاضداد ، ثم لم يعنوا بالبحث عن اسبابها ، او — ان شئنا الدقة — لم تهمهم الاسباب فقد عرفوا اسبابا للظاهرة ، واعلن اكثرهم ان كثيرا من الاضداد ماتية من اللهجات القبلية ، وكشفوا عن كثير من هذه الطائفة من الالفاظ ، ولا خلاف بينهم وبين المنكرين غير انهم ارتضوا تسمية هذه الالفاظ القلبية بالاضداد، ولم يرتضها الآخرون .

كذلك لم يقصر المؤيدون نظرتهم على الالفاظ عند وضعها الاول ، بل اغفلوا هذا الوضع عامدين اذ لا اهمية له عندهم . وامعنوا النظر في الالفاظ العربية التي يسمعونها ، ويتحدثون بها ، ويدونون ما يدونون، فوجدوا فيها فئة من هذه الالفاظ التقطوها ومنحوها اسم الاضداد ، دون ان يابهوا للاسباب التي ادت الى ذلك ودون ان ينكروا هذه الاسباب ، بل لقد شارك بعضهم كقطرب في الكشف عن بعضها كالتوسع وما شاكله لان وجود سبب للتضاد لا يتنافى عندهم مع التسمية .

ولعل الاجابة عن الاسئلة التالية تزيل كل لبس امام المتنازعين :

1 — هل توجد في العربية الفصحى التي نعرفها اليوم الفاظ ذوات صورة واحدة ومعنيين متضادين ؟

اعتقد ان احدا لا يستطيع ان ينكر هذا الوجود.

2 — هل تعد هذه الالفاظ ظاهرة خاصة يجدر بها التسجيل بين الظواهر اللغوية ؟ اعتقد ان احدا لا ينكر هذا ايضا ، واضيف الى ذلك ان هذه الظاهرة لا تنفرد بها اللغة العربية ، بل توجد في بعض اللغات السامية كما كشف بعض المستشرقين ، وفي بعض اللغات الاوربية كما كشف الاستاذ عبد الفتاح بدوي، واذن فوجود الاضداد ليس منقصة للغة العربية كما ظن الشعوبيون قديما ، وكما يفهم من اقوال بعض المستشرقين حديثا ، مما كان واحدا من الدوافع — في اعتقادي — التي حملت عبد الفتاح بدوي على المغالاة في رفض الاضداد .

3 — هل تستحق هذه الظاهرة تسمية خاصة ؟ اعتقد ان كل ظاهرة مهما كان شيوعها يجدر بها ان يكون لها اسم خاص ، اما المؤيدون فقد سموها (الاضداد) فاذا كان المنكرون يجدون لها تسمية اكثر ملاءمة ، فاهلا بها .

4 — هل الاضداد بالشيوع الذي صوره القدماء؟ واضح من الدراسة الماضية ان تصور الاضداد اختلف من وقت لآخر ، ومن رجل الى رجل ، فضاق حينا واتسع آخر ، فكان تصور الاضداد ضيق المجال في باديء الامر عند المتحدثين فيها دون ان يحاولوا لها جمعا او تدوينا ، ولكن هذا التصور اتسع اتساعا غريبا عند اول مؤلف في الاضداد ، قطرب ، فشمل شتاتا غريبا من الالفاظ ، مما يدل على ان قطرب لم يكن يحسن تصور الاضداد، ولا احسن وضع الحواجز الفاصلة بينها وبين غيرها ، واضطر اكثر من جاء بعد قطرب الى تضييق المجال الذي وسعه ونفي كثير من الفئات والالفاظ التي ادخلها في كتابه ، فاخذ تصور الاضداد في الوضوح وحدودها في البروز ، ثم اتسع المجال مرة اخرى عند ابن الانباري خاصة لما ادخل من انواع جديدة من الاضداد ، واذن فالمجال

كان متغيرا عند القدماء ، وما اظن الا انه كذلك عند المحدثين وان كان اضيق عندهم منه عند القدماء .

5 ـ هل تعد كل الانواع التى اتفق عليها القدماء من الاضداد ؟

اعتقد أن أحدا لا يجادل فى ان ذلك مستحيل ، وان بعض ما عده القدماء من الاضداد لا يستحق هذه التسمية ، وضرب لذلك امثلة :

أ ـ ما اختلف فى تفسيره من الآيات والاشعار والاقوال .

ب ـ الفاظ وعبارات التفاؤل والتطير والاستهزاء

ج ـ ما وضع فى الالفاظ تصغا او تكثرا ، مثل الالفاظ التى تختلف معانيها دون ان تتضاد ، والالفاظ التى تتضاد معانيها بسبب ما يتعلق بها من ادوات كرغب عن والى

6 ـ ما السبيل الى معرفة اللفظ الجدير باسم الضد ؟

اعتقد ان السبيل الوحيد الى ذلك هو المعنى الذى يدل عليه اللفظ ، وهنا احترز فاقول المعنى الذى يدل عليه اللفظ ، واعني بهذا الاحتراز امثال هذه الالفاظ التى لم يحسن بعض اللغويين التنبه الى معناها الحق ونسبوا اليها معاني بدت متضادة ، فالصريم الوقت المنقطع اعني الوقت المنقطع من وقت آخر ، كالليل يقطع من النهار والنهار يقطع من الليل، وليس الصريم الليل خاصة ولا النهار خاصة

وامثال ذلك كثيرة ، تفطن اليها بعض القدماء انفسهم ...

واذن فما وجدنا من الالفاظ معانيه تؤول الى معنى واحد لا تضاد فيه يجب ان نخرجه من الاضداد، وما دل من الالفاظ على معنى واحد : سواء كان معنى خارجيا او ذهنيا يجب ان نخرجه من الاضداد ، وما دل من الالفاظ على معنى واحد : سواء كان معنى خارجيا او ذهنيا يجب ان نخرجه من الاضداد .

وانما يجب ان يكون الضد لفظا واحدا ، ذا صورة واحدة ، ومعنيين متضادين حقا لم يكن الجمع بينهما ، تلك هي الصورة الصحيحة للاضداد، وذلك هو السبيل القويم الى تطبيقها .

ويتجلى من هذا العرض القيمة العلمية لهذا الكتاب وما بذل فيه مؤلفه من الوقت والجهد وما تحلى به من الصبر والتثبت والتاني ، وما تحراه من دقة التعبير والتجرد .

التطور اللغوي ونشوء العربية

الأستاذ محمد يوسف نور الدين
"بيروت"

ان اللغة هي منزل الكائن البشري هيدجر ...وان اساس اللغة لا يقوم على ما تحتويه من كلمات ، وانما يقوم على تركيبها الخاص وبامكاننا ان نقول : ان العرب في ظل الاستعمار ، لجأوا لحماية هويتهم الى اللغة العربية او بالحرى الى اللغة العربية القديمة .ومن هنا نلمس قوة وصلابة قيم ومزايا العربية التي ناضلت بنجاح، لا ضد غزوات اللغات الغربية المسلحة بقدرة علمية ، على الايصال وحسب ، وانما كذلك ضد اللهجات « المحلية العامية » التي حاول الاستعمار تغذيتها لزرع الفرقة والتجزئة (المستشرق جاك بيرك).

ـ والتطور اللغوي ونشوء العربية مغامرتان في قلب الزمان ، وشوق الانسان اليهما ، الاولى : سفر في التاريخ وغوص الى اعماقه ... ثم ارتفاع عالد الى شواطىء الحاضر ، محمل بلآلىء الاعماق . والثانية : ارتقاء الى المستقبل ، وحوم على اعاليه...ثم اكتشاف غني سعيد يعود بالبشرى المقامر . من هنالك كانت نشأة اللغة العربية ، وبهذا السبيل النشوئي تسير فلا تتوقف بعد اليوم .

فاللغة بالاصل وجدان يتراءى بالكلمة ، وهما مرآة ذات وجهين في ايهما نظرت تطالعك البهجة .

فحاضرنا مشكل ، عديد المشاكل ، وقد زج انساننا العربي في اعتم المقلقات واخطرها ، ان في لغته ، او في عقيدته او في وجوده .

وعندي ان في هذه المقلقات اللغوية متشابكة تشابكا .

وقد عاش هذا القلق العصري، مغامر، يتخطى، فكتب منذ ثلاثين عاما ، كتاب « مقدمة لدرس لغة العرب » لذا فهذا يعني بان هذه المقدمة هي لاقتضاءات معاصرة، تتأثر في كل مكان من ارضنا العربية وتسير الى صعوبات اللغة العربية ومشكلاتها ، او تؤكد سهولتها واطمئنانها حتى لقد تألفت في ذلك مؤلفات جمة .

وبعد فاقول : بان اللغة هي وجدان يتراءى بالكلمة ، وهما مرآة ذات وجهين ، في ايهما نظرت تطالعك البهجة .

من هنا كانت نشأة العربية ، وبمجراها تسير ، فلا تتوقف بعد اليوم .

العربية واللغات الاخرى :

اللغة منزل الكائن البشري ومرآة فكره ، يلجأ اليها لتأكيد وجوده وينطلق بها لتحقيق رغباته .

لكن المنازل تغنى بسكانها ، والمرايا تصفو وتجمل بالعيون الناظرة اليها والوجوه المصورة عليها .

فاذا هاجر السكان او ماتوا ، خلت المنازل وافتقر غناها ، فهم روحها التي بها تحيا ، واذا قبحت العيون وشاهت الوجوه حالت المرايا وتعكر صفاؤها وافسد استعدادها، فالصور المطبوعة عليها وجهها الذي تبدو.

اللغات موطن الشعوب ومرايا أشواقهم .

واللغة العربية موطن العرب ومرآة تفكيرهم . فالمقارنة بين طبيعة اللغات ومميزاتها الحيوية من جهة، وبين طبيعة اللغة العربية وخصائصها من جهة ثانية . فالمقارنة الحقيقية بعيدة عن طبيعة اللغة العربية ، وملابساتها فى حياة العربي ، وعلى تحديدها وادراكها يتوقف تصحيح الاساوب التعليمي وتقويم المنهج التربوي ، واقتصاد الجهود المبذولة .

لان هذه الاسباب اثرت على النفس العربية تاثيرا شديدا وطبعتها بطابع غريب من الزهد باللغة .

ومن هذا التاثير وهذا الطابع .

1 ــ طغيان اللغات الاجنبية على حياتنا العامة فى كل مرافقها الضرورية كالبيع والشراء ، حتى يكاد العربي يشعر بالغربةفى محيطه العربي وبين ذوي قرباه.

2 ــ الرغبة الثقافية : وهذه الرغبة لا تتحقق للعربي ، ما لم يلم الماما كبيرا بلغة او اكثر من اللغات الاجنبية ، لان الانتاج الفكري والعلمي المعاصر اجنبي بكل نواحيه .

واننا فى حاجة ضرورية لان نعد عقلا عربيا اعدادا ثقافيا كاملا ولا يتسنى له ذلك الا بالاقبال على اللغات الاجنبية ، فالمستحضرات الكيماوية ، وقطع الغيار للصناعات الثقيلة وغيرها والادوية كلها لا يوجد لها مفردات مترجمة فى العربية ، فاضطر المثقف العربي لان يلم باكثر من لغة ليتسنى له ان يسير فى تيار التطور والرقي العالمي والعلمي والادبي .

3 ــ الامتياز : بمعنى ان متعلم اللغات الاجنبية المتحدث بها ، شخص ممتاز او مميز ، لان هذه اللغات بالنظر العام ، عنوان الحضارة فى الحياة والشخصية وعنوان الترف العلمي ، والاجتماعي ، والعقلي من كل الوجوه .

وليس فى جميع اسباب الشكوى ما يرجع الى طبيعة اللغة وجوهرها وانما هي اسباب عرضية ، غير موضوعية ، خامرت اجيالنا ، فلم تلم بلغتها الام واستصعبتها، ومالت الى اللغات الاجنبية واستسهلتها الا ان فى نظري بان اللغة العربية هي اسهل اللغات ، ان فى قانون نحوها ، وصرفها ، او املاءاتها او اشتقاقها بل اكثرها آلية اذا صح التعبير .

كل هذا لا يعني خلو العربية من الفوضى .

ادوار اللغات ونشوء العربية

ان تاريخ النشوء اللغوي وتطور اللهجة ، من المواضيع التي لا تزال اقرب الى الغموض منها الى التبيان . ومحاولة الكشف عليها تبسط رايا جديدا حول موضوع الغموض ، لم تتوقف عند بحوث المتكلمين وجدلهم بقضية اللغات أهي توقيفية، هكذا وردتنا من الله ؟ أم وضعية ، تعارف عليها الانسان ؟ كما لم تقتنع بتقسيمات ، علماء المقابلة اللغوية فى هذا العصر .

والحديث عندنا هو ان اغلب اللغات ان لم تكن جميعها قد مرت فى ادوار ثلاثة ، مرتقية منها أم غير مرتقية .

1 ــ دور المقطع البسيط : وهذا يعني بان المقطع كان واحديا غير مركب مثل (ba) وفى هذا الدور ولد الجدول الهجائي (ا ، ب ، ت ، ث ، ...) الخ .

بمختلف اصواته، بمختلف حركاته العربية، وان كل صوت يدل دلالة بعينها ، فمثلا ، (عو) يدل على الحيوانات الزئيرية و (وا) يدل على الصوت المضاعف والمتكرر بحركة الفكين .

2 ــ دور المقطعين : اى دور الجمع بين مقطعين واحديين للدلالة على معنى جديد ، ويعتبر هذا الدور دور محاكاة الطبيعة فى مختلف اصواتها ، وفى آخره قصد الانسان الى التاليف من منطقه ، فجمع الانسان السامي بين المقطعين البسيطين (عو) و (وا) للدلالة على ان الحيوان يعوي فتوصل الى (عووا) بمعنى حيوان يصوت او يواصل التصويت .

والى هذا الدور تنظر المعلات فى العربية ، فهي ثنائية الوضع مؤلفة من مقطعين واحديين فقط .

وباستقرار العربية فى الثلاثي بدات تصحح الصوت فيها ، وتستحصل مثل (عوى) بمعنى صوت الحيوان .

3 ــ دور المقاطع : اى دور الجمع بين المقاطع البسيطة الواحدية وبين المقاطع الثنائية ، لتاليف دلالة مركبة .

وكان هذا الدور بقصد الانسان تلبية لحاجته الماسة اليه . وفيه اتخذت العربية وحدتها الكاملة واستقرت فى الثلاثي .

وختام تمهيدنا هذا لادوار اللغات ونشوء العربية لقد مرت شتى ضروب اللغات بأدوار ثلاثة : المقطع البسيط والمقطعين والمقاطع . وانها لتؤلف جميعها الدور اللغوي البدائي .

ولقد حييت لغات وامينت لغات، وهنالك لغات اخذت بالحياة ، وهذه الاخيرة وحدها الفت العهد اللغوي الثاني عهد اللغات المرتقية .

وتقسم هذه المرتقية باعتبار مرونتها للتصريف والاشتقاق الى متصرفة وغير متصرفة .

دور المقطع البسيط :

ا ــ الانسان الفطري: ان لبحث الانسان الفطري، علما قائما بذاته هو علم الانسان « الانثروبولوجيا » وما يهمني من ذلك الانسان الفطري في موضوعي هو البحث عن اصواته السليقية ، التي استقرت في فايتها على صورة وكانت لهجة ، ولا تعتبر الاصوات لهجة ما لم تستقر .

اما اذا اخذنا في تحليل كلمات العربية على معاني الجدول خرجنا بمقارنات يمكن عليها فرض التطور، واليك بعض الامثلة من الكلمات التالية : شجر ، جبل، جمل ، سمك .

المثال الاول : شجر ، شجرة وتحل الى حروفها، ش : معناه سن وهو ينظر الى مطلق النبات ، ج ومعناه جمل ، وهو ينظر الى مطلق الارتفاع،ر :ومعناه راس.

اما المعنى المؤلف : نبات مرتفع له راس ، وهو تماما معنى الشجر وانظر الى تخصيص اللغوي الشجر بما له ساق .

المثال الثاني : جبل وتحل الى حروفها ، ج : ومعناه ينظر الى الارتفاع ب ، ومعناه بيت ، ل ومعناه الملاصقة والمساس .

والمعنى المؤلف : بيت مرتفع ملاصق ، وكانه للسحاب او للارض وهو تصور صحيح عن الجبل .

ومن هنا لا نطمئن الى القول ، بأن لغات العالم تفرعت عن مصدر واحد ، وانما هي وليدة اسباب مكانية اجتماعية ، وانفرادية كالعادات وليدة الطبائع والظروف .

واذا كان الانسان الفطري لم يتوصل الى الجدول الهجائي بترتيبه الحالي ، فانما توصل اليه كمجموعة لكلمات اللغة الفطرية .

واذا كان الجدول لا يضمن الدراسات نكل كلمة من كلمات اللغة على وجه التحقيق ، فانه يمكننا الاطمئنان الى انفصال اللغة عنه ثنائية فثلاثية .

كما يمكن الاسترواح بترتيبها الحالي هي ثمانية وعشرون حرفا .

— ◆ —

ان الانسان القديم جمع بين مقطعين واحديين للدلالة على معنى جديد .

لقد شرع الانسان يسعى وراء مقاصده في هذا الدور ، واخذ يحاكي الطبيعة ومن هذه المحاكاة التي تعتبر مصدره اللغوي الوحيد ترك ثروة لغوية هي اكثر المقاطع الثنائية .

ومن طبيعة الانسان معاني الجدول الهجائي يوقفنا على مستوى الاخيلة الواضحة ، ويساعدنا على تحقيق التطور الوصفي وتاريخ الاشتقاق .

واننا نورد هنا مثالين يوضحان ان الثنائي من وضع هذا الدور ، هما عبى ، والمعلات .

المثال الاول : عبى، تحلل الى حروفها ع : وتدل على الحيوان الزئيري ، ب وتدل على البيت .

ا ــ ابدال الهمزة : وهذه ظاهرة قليل من باحثي الاشتقاق العربي قد تنبهوا لها ، مع ان لها خطورتها في بناء الكلم وتحرير معانيها ، فمثلا : اخي اصلها وخي :

ب ــ الحذف والتضعيف : وهذه ايضا ظاهرة لغوية لم ينتبهوا اليها وهي بلا ريب عظيمة الاهمية من حيث وجوه المعرفة .

وخلاصة القول : في ان الانسان حاكي الطبيعة بمختلف اصواتها ، وقصد في آخرها الى التاليف من منطقه بالمعنى الذي اوضحناه ، للتاليف والجمع بين مقطعين احاديين وترك ثروة هي اكثر المقاطع الثنائية.

ورأينا كذلك حالة لا بد منها فى نشوء اللغات ، واليه يرجع الثنائي بما فى ذلك المعلات ، راسا على وجه الاطراد لان واحدا من هذه الحروف ليس اصلا .

— ◆ —

لقد كان بقصد الانسان تلبية لحاجته ، اذ كان يجمع بين المقاطع البسيطة الواحدية وبين المقاطع الثنائية لتاليف دلالات مركبة . ان العربية اتخذت وحدتها فى هذا الدور واستقرت فى الثلاثي .

ان هذا الدور هو عصر الحجر المهذب الذي تم فيه للانسان كثير من الرقي ، واننا نستعرض ادوار النشوء فى بناء هيكل اللغة على سنة تدريجية غير آخذة سبيلا من الطفرة او قائمة على اسس المفاجئات المحضة .

ولقد كان الانسان بحاجة فى هذا الدور الى الخطاب المبسوط ، بحكم عوامل الرقي والحضارة والتطور ، فلقد وجه العناية الكاملة الى اصلاح المنطق.

ولقد قسم هذا الدور الى حلقات ، تعاقبت على اعتبار الثلاثي ، ولم تتغير فى اساسها ، وانما اختلفت فى نسب جعلت بينها تفاوتا ارتقائيا فقط ...

ـ وفى بحث هذه الحلقات ، حصرنا النظر فى التطبيق على العربية ، ان تطبيقها فيما عدا العربية يحتاج الى مجهود اكبر ، وعرض اوسع .

ا ـ يتكون المنطق اللغوي والتعبير عن حاجته.

ب ـ تكثير اللغة وخوض الزيادة ...

ج ـ النضج اللغوي عند العرب كما يظهر فى قاعدة القلب ، ومستلزماتها ونتائجها .

د ـ المعاني التركيبية ، وطريقة الغربي فى وضع الرباعي من الثلاثي ...

هـ ـ المنطق اللغوي ... والتعبير عن الحاجة.

لقد بذل الانسان ما فى وسعه فى سبيل ان يخضع ما حوله من اجل معاشه ، واعمل الحيلة لتكوين منطقه بين مطالب العيش الجديدة فصارت له لغة على مقياس من تفكيره وحوائجه ...

ومن المعقول بأن المنطق اللغوي قد امتد الى آخر العصر البرونزي الذي تم فيه للانسان وضع الحجر الاساسي فى بناء الحضارة .

لقد بقيت لغة الانسان فى المنطق اللغوي على غير تناسب ولا نظام ، اجتهد فى اصطناع كلماتها لابراز ما فى نفسه ولنقل ما يريد الى من يشاركه الحياة ويجاور المسكن .

وتتالف من :

ا ـ المفردات ذات المقطع الواحد .. اصبحت فيما بعد الجدول الهجائي .

ب ـ المفردات ذات المقطعين ، وهي المعلات فى دور النضج اللغوي .

ج ـ واخيرا ذات المقاطع ... وهي فى النهاية ذات وحدة فى العربية منها تصدر كلمات العربية واليها تنسب .

— ◆ —

ولقد اخترعت الكتابة فى هذا العهد ، ما يثبت لنا التقدم الاجتماعي ، وعلى العقلية اللغوية الراقية ، ويشير الى سمو هذا القسم من الوجهة اللغوية .

المهم ان اللغة لم تعد اتكالية ابدا بمعنى ان الانسان لم يعد يتكل فى تكثير اللغة وتسمية الاشياء ، على المصادفات الطبيعية والملابسات الظرفية بل اصبح يلجا الى التاليف والتركيب عند الحاجة وحسب المقتضيات .

ولقد بقيت اللغة فوضوية لسببين :

1 ـ لم يهتد اللغويون الى ترتيب جدول الهجاء على وجهه .

2 ـ وكذلك لم يهتد اللغويون الى قانون الزيادة ومكانها ، فكان يزيد على الثنائي هكذا من غير تقرير لموضع الزيادة .

وهنالك تباين بين المنطق اللغوي ، والاكثار من اللغة ويرجع هذا الى فرقتين اساسيتين هما: التركيب والقصد .

ا ـ فالثلاثي فى المنطق اللغوي كان عبارة عن تركيب مؤلف من ثلاث كلمات ، فلم يكن مفردا فى مفهومه وان تعين بحكم دلالته وموضوعه والثلاثي فى

الاكثار اللغوي كان عبارة عن مؤلف حرفي ، لا دلالة لحروفه على الانفراد في اللغة الاتية. :

2 ـ ان الثلاثي في تكثير اللغة دخله القصد في ان يكون ثلاثيا بينما كان ثلاثيا بضرورة تشخيص الموضوع للواضع .

— ◆ —

بعد الاطلاع على ما سبق نعتقد بانه تم النضج اللغوي عند العرب فلم تعد اللغة في حاجة الى شيء مما كانت تحتاجه اولا ، بل خضعت خضوعا عاما لا أصول في الوضع ، اعتبرها اللغاويون (الفيلولوجيون) اسمى وارفع ما عرفت امة من الامم، لقد رتب العربي الجدول الهجائي في طور الاكثار من اللغة ، فلقد كان لعرب الجنوب على ترتيب خاص يكتبون بها .

ولقد اجتهد في تنظيم قاعدة الوضع حتى استخلص قاعدة موزونة جدا ، وهكذا رتب الجدول الهجائي واصبح ضروريا ان نتكلم في تحديد معاني حروف الهجاء بما تسمح به النصوص المحفوظة .

ومعقول العربي ، في ترتيب الجدول الهجائي ، وفي اعتماده القاعدة بكل فروعها ، وفي ثورته اللغوية التي اخضع فيها لقاعدة جميع مواد اللغة ، هذا معقول وحده يكفل بقاء العربية في مواجهة المستقبل ...

ومن هنا كانت ثورة اللغويين على الانحرافات المضلة ، والاوهام المريبة التي تشد معقول العربي حسب العربية للفرد العربي .

ولقد عبر العربي عن معقوله اللغوي الراقي بقاعدة على مواد اللغة .

أ ـ تصحيح المعاجم

ب ـ الوقوف على الدخيل من الاصيل .

ج ـ ان ناخذ الوضع الجديد على مقتضاة لنسد نقص اللغة وتكفي حاجتها .

معاني الحروف العربية

بما تقدم من شرح ، وفر العربي للغته كل عناصر البقاء ، فاعتمد الجدول الهجائي ، بمعانيه العمومية ، نواة اللغة .

واعتمد كذلك خصائصه الحيوية ، ووحدة الكلمة حتى لقد اخضع جميع القوانين اللغوية وكرسها خدمة للغتـــه .

ولم تعد لغة العربي في حاجة لغير مكملات تتحكم باللغة وتنفي عنها التريث البطيء، وتدفع بها الى المد غير المنجزر .

ولو بقي العربي في جزيرته العربية لبلغت اللغة العربية اوجها في الازدهـار والتطـور وتنظيـم تلـك المكملات ، ولما بقيت على فوضى الموازين ، والجموع والمصادر والافعال .

فتوقف تطور هذه اللغة بداعي الخـروج مـن جزيرته ، وتخلل العرب في بقاع متباعدة من الارض .

حتى لقد صادف الفرد العربي من لغته المعانـي التركيبية ما لم تؤديه له في النضج اللغوي ، ولقـد لاحظ ان معاني هذه اللغة لا تبنى سوى على الثلاثي ، كما لاحظ ايضا ان هنالك زيادة في المعنى تفتقر الى ما يؤديها لتتم دلالتها .

من هنا انبثقت حاجة الفرد العربي الى الزيادة ولقد توصل العربي في هذه الحقبة من الزمـن الى التعرف على زيادات تصريفية ، جعل موضعها في اول الثلاثي ولم تولد الافعال الرباعية والخماسية ، وكانت هذه الزيادة ، قد استنبطت في وقتها لان العربي كان بحاجة اليها ، وعليه فالزيادات على اقسام :

1 ـ زيادة البناء : وتتكون هـذه الزيادة مـن الثلاثي ولوضعها الوسط .

2 ـ زيادة الاشتقاق ، وتتكون من الثلاثي لكي يحصل العربي على الرباعي وما اليه وموضوع الاخر .

3 ـ زيادة التصريف:من قبل كتفعل،واستفعل، وموضعها الاول غالبا لعدم الالتباس .

4 ـ اما زيادة الاسناد : كفربت ليسـت مـن اقسام الزيادة على معنى التاليف ، بل ان الكلمة تصبح مركبة ، لانها سواء كانت علامة او ضميرا فانها حاجة غريبة عن الكلمة ، وقد تضاف لجمال الاسلوب .

هذه هي الطريقة الفضلى التي كان على العربـي ان يسير اليها منذ حقبة من الزمن بعيدة .

لاستحصال الرباعي والخماسي .

وان هذه الطريقة هي نظرية ليس للمرء ان يشك بها ومستوجبا الاخذ بها ، ولا بأس من ايراد امثلة تؤكدها ، كالقرطاس ، والعنقاش ، وختلم .

فالقرطاس : ذكرت المعارف الاسلامية معتمدة تحقيقات : ان القرطاس هو ورق البردي وانتهى الى انها دخيلة .

ولو عدنا الى ما قبل هذه الحقبة لوجدنا بان القرطاس يرجع الى قرط ، والقرط هو ورق الكراث، ولما كان الورق من البردي على نسق ، ابسط ، اضافوا اليه السين لكي يبرهن ويدل دلالة على اهم مميزات الورق النباتي المذكور .

ف ، قرط + س = ورق البردي .

فالقرط مجموعا الى السين يدل على السعة والبسطة ويعطي المعنى التحليلي للقرطاس .

ـ وعنقاش : ومعناه المتجول فى القرى وهو كذلك بحسب القاعدة يرجع الى الثلاثي .

عنق : ومعناه شدة المسير ، والشين تدل على التفشي وعدم النظام ، وعليه فالدلالة التامة له السير على غير نظام ، وهو المقصود من التجول فى القرى .

ـ وختلم : ويرجع الى ختل فى الاصل وهي موضوعة لاخذ الشيء خفية .

وهكذا كان فاخذ العربي عن الاولين هذه القواعد لقاعدة العربي هذه فوائد اهمها :

1 ـ وضع حد للتعريب .

2 ـ وضع قاعدة صحيحة لابحاث اللغة .

3 ـ افادة غير محدودة فى الوضع للمستقبل ، وسد حاجة اللغة من بين هذا المد العلمي الزاخر بالمصطلحات .

4 ـ تصحيح المعاجم عن الاقدمين ، الذين كان اعتقادهم بأن الرباعي وما اليه تولد بالتركيب والاختزال ، فظن بأن بعثر من بعث ـ اثير ـ ومثل شقحطب من شق ـ حطب ـ

وقد يظن بأن هذا الاخذ الجديد الذي تدل العربية عليه ، من اقرار الموازين بدلالات قارة ، واقرار الاقفال على باب واحد ، وكذلك المصادر والجموع كل هذا لتصل العربية الى المستوى الذي كانت ستصل اليه لو بقيت فى محيطها بدون براح .

التطور فى اللهجة

للهجة منزلة كبرى وذات اهمية من اللغة ، ولا تقل شأنا عن الالفاظ ، لانها قد تكون وحدها فارقا على خطر . ويجدر بنا ان نقول ان تعرضنا للهجة العربية بحد ذاتها ، فهي متعددة الوجوه ، ومتعددة الاجناس ويتكلمها خلق كثير فعلينا اذن ان نتناول هذا البحث من هذه الزاوية من خلال الوجهة العامة وليس تعرضي لكل قبيلة او لكل جنس على حدة بل بصورة شاملة عامة .

1 ـ التطور الصوتي :

ان الباحثين والمدققين عن اللهجات اخذوا بقايا التطور المستمر فى قبيلة ما علما عليها وحدها ، ولم يراعوا اعتبارات اللهجة الواحدة .

فهذا هو الخطأ بعينه لانه لا يصح من كل وجوهه، وبالتالي لان ما كانوا يسمونه باختلاف اللغات ، ليس له هذا المعنى حقيقة ، بل انها بقايا تركها التطور الذي لم ينته من تكامله .

ومن الامثلة التي خفيت على اللغويين ما يلي :

يعقيد : وهو العسل الذي يعقد على النار وكذلك يعصيد وهي بقلة مرة لها لبن لزج .

اللغويون لا يترددون فيما ذهب اليه صاحب المصباح وغيره من الكتب اللغوية، مع اعتبار ان الكلمات السابقة هي ابنية اسمية اشتق عليها توسعه .

ولكن القول بأن العربي مر بهذه الكلمات فى عهد من العهود اللغوية السابقة كافعال فقط ، فقد كان العربي يتخذ من الفعل وصفا ينطبق بالحركة حرفا ، فلا عجيبة ان يكون العربي قد وصف بهذه الافعال ، مثل يعقيد وينبوع .

وهكذا تطورت اللغة وظلت هنا دالة على مسمياتها مع الاحتفاظ بكونها الاثير الذي ينظر الى وجوده السابق ، وبرهان ذلك يتلخص فى :

1 ـ بقاء اللهجة المقدرة على لسان بعض القبائل العربية فمثلا لقد ورد فى الجاهلية على لسان الشاعر الاسود عنترة كلمة ينباع فى قوله :

ينباع من ذفرى غضوب جسرة
زيافة مثل الفنيق المكدم

ووردت عند غيره ينبوع ، فهنا يبرز التباين في اللهجة ، بينما يرجعها اللغويون في المعاجم القديمة الى بابي طرب يطرب ، وحقد يحقد ، نبع ينبع .

2 ـ ويذكر بعض اللغويون كابن الاثير والانباري وابن منظور في لسان العرب وغيره من اللغويين وكتبهم، كلمة نعم بانها نصت ينعم كما كذلك وردت في نعام .

اما النتيجة فواضحة بان هذه الكلمات هي افعال مضارعة اثرية بقيت في اللغة على سبيل التحفة الاثرية.

ورى بعض اللغويين كابن فارس والفيروزابادي وتاج العروس بأن العربية مرت بعهدين :

ا ـ العهد الصوتي : ويمتاز بقيام اللغة العربية على الحروف ، ومحافظتها على اسلوب القرآن الكريم بالفاظ متفاوتة حركة وصرفا . مع الترداف المعنوي ـ مثل شيمال وشمال ـ .

ب ـ العهد اللفظي : ومن اهم مبتكراته قيام العربية على الحركات وبتحررها ، ولكن تحررا موضعيا من الصوتية وبتركها قوانين تعد اللغة للتحرر على الاطلاق .

ونقدر ان نقول بان في هذا العهد بلغت اللغة الشوط النهائي من ترقي اللهجة .

ب ـ صوتية اللغة :

يجب ان يمتاز هذا القسم من الفصل الثاني تطور اللغة العربية بأمور هامة جدا وهي :

ـ على المتكلم ان ينطق كل حركة حرفا ، فهذا مما يدلنا انه كان هنالك كلمات في اللغات العربية ولدت بعهود صوتية كما في المثل المتقدم سابقا ، شيمال وشمال ، ومما لا شك فيه بانها وردت كذلك بعهود كانت**اكثر صوتية** ، حيث كانت مركبة من حروف ذات اصول **لمدلولات** بعينها .

ـ يفرض على المتكلم**ان** يبدا كلامه بحركة ساكنة، وان ينهي حديثه بتحرك ، نظنه الواو كما في الاشورية والبابلية فالابتداء بالساكن ، وهذا مما يدلنا على ان اللغة مرت في عهد اكثر سكون ونطقت فيه ساكنة الاول مثل : اجفيل ، واخريط ، امشوشب ، وقد اضيفت الهمزة للتوصل الى النطق الساكن من مثل : امرؤ امراة ابن الخ ...

والانتهاء بمتحرك هو الضمة الممدودة او الواو ، ويدعو اليه احتفاظ عمرو بالواو في املائيته. ومن بديهي القول ان معرفة العرب للكتابة قديم جدا وان كان تطورها بطيئا ، وهكذا نرى بان عمرو ، كلمة زيدت عليها الواو التي لا فائدة منها ولا غناء ، اما القول بانها للتفريق بين عمرو وعمر فأمر هو اقرب الى التخريف منه الى التطور ، وانطلاقا من كلمة عمرو نرى :

ا ـ النصوص الحميرية : مثل اخت امهو اى اخت امه .

ب ـ ما في لسان بعض القبائل من تحريك ضمائر الجمع للغائب من مثل عليه اليهم وهو معروف في الكلام على قراءات القرآن الكريم .

ج ـ احتفظت العربية بالوقف بالروم في بعض المواقف ، والروم مختلسة تميل الى الضم .

د ـ لقد زادت العرب النون في فعل فعلو واصبحت فعلون ، لتمكين المنطق والتخلص من الصوتية .

هـ ـ بناء فعلين ، يرجع بأمره الى بناء فعل فعلون فهذا من افعال الاتباع وهو قانون شائع في اللغة

الدورة اللغوية الطويلة

ان الظن في هذا القسم هو انه من المؤكد انها محركة الاخر ولم تتحرر الكلمة من التقاء الساكنين ومعنى هذا ان اسبابا من البناء اللغوي القائم ، جعل اللغة تتهيأ للتحلل وان لم يكن على الوجه الاكمل، وعليه فقد بقيت الحركة تنطق حرفا في كثير من مواضع الكلمة اى لم تعد تنطق كذلك باطراد ، ومن ثم كان وجه للتحلل وان لم يكن على الوجه الاكمل وعليه فقد بقيت الحركة تنطق حرفا في كثير من مواضع الكلمة لم تعد تنطق كذلك باطراد ومن ثم كان وجه للتحليل .

وفي اعتقادنا وبحثنا ان اللغة دارت دورتها وكانت طويلة جدا ومثمرة كثيرا وخلعت فيه من حركة الاخر، ولكنها تخبطت في تجارب كثيرة حتى خرجت العربية نهائيا بتجربة الاعراب المدهشة .

ـ ولقد حاول الاستاذ ابراهيم مصطفى صاحب كتاب (احياء النحو) درس هذه الظاهرة على وجه تعليلي نشوئي ولو **درس العربية للنهج التطوري** الذي ناخذ اللغة للوصول الى حلول حقيقية وغير رايه في اشياء كثيرة .

ونخلص الى القول بان الفرد العربي كان همه ان يميت التطور الصوتي ولا يقصد الى التكثير والتزايد، ولكن وجدت هنالك أسباب عملت على حفظ تلك الاثريات في اللغة،مما ساعدنا على استنتاج ما نستنتج لتصحيح ما اخطأ به اللغويون ومن اقرار العربية في الوجهة التي قصد اليها العربي ، والتي تستطيع بها وحدها أن تكون لغة للمستقبل بين اشيائه الباقية .

الاسباب التي حفظت الاثريات

من الاسباب التي ساهمت في حفظ الاثريات في اللغة العربية هي :

1 ـ التشخيص العلمي : ومن ذلك يربوع ويسروع .

2 ـ القصد الكنائي : ومن ذلك ياجوج وماجوج .

3 ـ حداثة الارتقاء : ومن ذلك انظور وطومار

4 ـ الكتابة : وذلك لاحتفاظ الفرد في الاملاء بواو عمرو الزائدة مثلا .

1 ـ التشخيص العلمي : وقولنا هذا يعتمد على ان نتخذ اللفظ مفهوما شخصيا وان يحتفظ بمدلول معين ، فمن المعقول جدا الا يتأثر اللفظ بالتطورات التي تعرض لاصله الا نادرا بعد التشخيص العلمي لانه فارقه في المعنى . ومن الاثريات في هذا القسم من حفظ الاثريات من الافعال المضارعة .

1 ـ يسروع : اسم دويبه تكون في الرمل .

2 ـ يربوع : اسم دويبه اكبر من الفارة .

3 ـ يعسوب : اسم دويبه من النحل شبيهة بالجرادة .

4 ـ يقطين : نبات معروف .

ب ـ القصد الكنائي : القصد الكنائي يشابه التشخيص العلمي ، ولكن ذلك في المعاني ، فدلالة الكلمةاو التركيبليس الا المعنى المثلى فقطومن الاثريات المحفوظة في القصد الكنائي ياجوج وماجوج .

اما القصد بكلمة ياجوج ما يلزم عن معناهما الكنائي من التاجيج المتدافع ، والتأجيج في كل شيء.

اما لغويا فياجوج فعل مضارع من ثلاثي أجج .

اما ماجوج فهو اسم مفعول منه ، وهو التاجيج للمتدافع واظن انه كله يستعمل لعهد القرآن كمثل في هذا المعنى .

ومما ساعد على حفظ مثل هذه الكلمات ووردها في النصوص القرآنية. فبقي لها امكنة واسعة رحبة.

وكذلك ورد في الاحاديث النبوية الشريفة على ما اظن جوع يرقوع ، وفرس يعبوب ، وطريق ينكوب وارض يخضور ، واعتمدنا في تفسير حركات الافعال في ابوابها الستة فالابواب الستة المشهورة هي :

نصر ينصر ، ضرب يضرب ، فتح يفتح ، علم يعلم ، كرم يكرم ، ورث يرث .

ـ الكتابة : ومن اهم الاسباب التي حفظت ، وعملت على بقاء الاثريات في اللغة هي الكتابة اطلاقا ومن ذلك قولنا في اسم عمرو والواو الزائدة فلولا الكتابة لما وجدت الواو في آخر الاسم .

وان النتائج في هذا البحث تتجلى في تاريخ التفريغ اللغوي وضبط عين الثلاثي ، وانطباع العربية بطابع الاعراب لهذا البحث اهميته الكبرى وهو تاريخ التفريغ اللغوي لانه الاداة الوحيدة للتاريخ والتشعب المدبر .

ان التطور في اللهجة يؤكد البرهان على اهمية الثلاثي ، كما يؤكد كذلك بأن اللغة العربية انفصلت بعد تمخضات وبلوغات طويلة واستوت في اكمل ما تكون لغة بما لها من مميزات فانها في المميزات المبينة في الاعراب والبنية لادق لغة في ملابسات اللفظ للمعنى ملابسة حقيقية .

ومن ذلك ان المثنى شاهدا قاطعا لا يقبل التردد في غيرها ، فاننا حين نرى المذهب البياني في اللغات قاطبة يعبر عن الاثنين بسبيل الجمع ندهش كثيرا وعلى وجه غير محدود للدقة العربية ، التي تبالغ في اعتباره ونجد غيره شيئا كثارا يشهد بدقة العربية كلغة، ويشهد بمقدار التسامي اللغوي في طبيعة الفرد العربي .

التطور في اللغة

كان بامكاننا ان نلج هذا الفصل نظرا لاهميته في طليعة تعرضنا للبحث عن اللغة العربية ولكننا تركناه الى الفصل الثالث ، بعد تعرضنا لضربين اساسيينمن